







شريف شوقى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هــذا الزمن الذى طغت فيــه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهـذا النـوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرِّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف



# ١ ـ الهاربة ..

تطلَّعت (نادية) من نافذتها فى القطار ، إلى الحقول الخضراء والأشجار الوارفة ، وهى شاردة الذهن ، بعيدة كل البعد عن الإحساس بجمال الطبيعة ، وبالمناظر الخلابة التى يجود بها الريف المصرى ؛ فهى اليوم مقبلة على حياة مختلفة ، عن التى اعتادتها وألفتها من قبل ، وعلى عمل من نوع آخر ، يدخل حقًّا فى صميم مهنتها ، ولكن على نحو مختلف عن ذلك الذى اعتادته ، فى مستشفى الدكتور (بهاء) ، حيث كانت تمارس عملها كممرضة مقيمـة بالمستشفى ..

كان المستشفى هو كل عالمها ، بعد وفـاة أمها ، ولحاقها بأبيها ، الذى فارقته وهى ماتزال فى الرابعة عشرة من عمرها ، والتحقت بعدها بمدرسة التمريض ، لتضمن لنفسها عملًا سريعًا بعد التخرج ، يغنيها عن الحاجة ، ويمكنها من خلاله أن تعول نفسها وأمها المريضة ، فلم يكن معاش الأب كافيًا ، بأىّ حال من الأحوال ، لسداد نفقات معيشتهما ، بالإضافة لنفقات علاج الأم ، التى مرضت بعد وفاة الأب مباشرة ..

وعلى الرغم من أن أبويها كانا يأملان لها مستقبلًا أكثر طموحًا ، لما لمساه فيها من ذكاء مبكر ، وما حباها به الله من جمال ، كان محل إعجاب الكثيرين ، إلا أن الظروف التى انتهت بوفاة الأب ، وتدهور صحة الأم ، ومرضها الذى استمر ست سنوات كاملة بعد رحيله ، كان لها تأثير كبير فى تغيير مسار حياتها ؛ فقد دخلت مدرسة التمريض ، ثم تخرجت منها لتعمل بمستشفى الدكتور (بهاء) ، عن طريق وساطة أحد معارفها ، وهو مستشفى خاص ، يقع فى إحدى ضواحى (القاهرة) ، ملك لطبيب مصرى فى الخامسة والخمسين من عمره ، وهو الدكتور (بهاء) ، الذى عاد من الولايات المتحدة منذ عشر سنوات ، بعد عشرين عامًا قضاها هناك ، ليؤسس هذا المستشفى ..

وفى الحقيقة لم يكن الرجل من ذلك النوع المادى الجشع ، من أصحاب المستشفيات الخاصة ، بل كان إنسانًا بكل معنى الكلمة ، فقد رأت (نادية) المئات من المرضى المحتاجين والفقراء ، وقد استضافهم للعلاج فى مستشفاه ، حيث أجرى لبعضهم بنفسه عددًا من العمليات الجراحية ، وأمر برعايتهم طبيًا على أفضل وجه ، ووفر لهم أحسن عناية ، دون أن يأخذ من أحدهم قرشًا واحدًا مقابل ذلك، وفى المقابل لم يكن يتنازل عن



أى قرش من المبالغ الباهظة ، التى كان يحصل عليها كمستحقات للمستشفى ، من مرضاه الموسرين الأثرياء ، وبالنسبة للعاملين معه فى المستشفى ، فقد كان الرجل يتبع معيارًا لا يقل عدلًا عن المعيار الذى يتبعه مع مرضاه ، فهو الرئيس الصارم ، الدقيق للغاية فى تعامله مع مرءوسيه ، وهو الكريم السخىّ مع كل من يلتزم بأدائه لعمله على الوجه الأكمل؛ كما كان بمثابة الأب الروحى الحنون ، لكل العاملين معه فى المستشفى ، إذ كان يرعى دائمًا الناحيةَ الإنسانية فى تعامله مع مرءوسيه ، سواء أكانوا من الأطباء أم من الممرضين ، أو حتى من السعاة العاملين فى المستشفى ، يسأل عن حال كل منهم ، ويرعى ظروف كل من يلجأ إليه ، فى ضائقة أو أزمة تلم به ، وكان يرعى تمامًا (نادية) ، خاصة بعد وفاة والديها ، فسمح لها بالإقامة فى المستشفى ، وتولاها برعايته الشخصية ، تعاطفًا مع ظروفها ، وكانت (نادية) تجد منه دائمًا تلك اللمسة الأبوية ، التى حُرمت منها بعد رحيل أبويها ، وتستشيره فى كثير من أمورها ..

وتذكرت (نادية) وهى مازالت تتطلع إلى الحقول الخضراء، التى يمرّ عليها القطار، يوم طلبها فى حجرة مكتبه؛ ليسألها قائلًا بذلك الحنو الأبوى، الذى كانت تحبه فيه :

- ما أخبارك يا (نادية) ؟
أجابته قائلة :
- الحمد لله يا دكتور (بهاء) .. إننى بخير .
عاد يسألها :
- بلغنى أنك تريدين تركنا ومغادرة المستشفى.. أهذا صحيح ؟
ردت عليه قائلة :
- إننى فى سبيلى إلى الحصول على عقد عمل بإحدى الدول العربية، و ...
قاطعها قائلًا :
- لم أعهدك تكذبين يا (نادية) ، فلماذا تريدين أن تغيرى رأيى عنك الآن ؟
تورّد وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتلعثم قائلة :
- إننى .. إننى ..
قاطعها مرة أخرى ، قائلًا :
- إنك تبحثين عن وسيلة للهرب ، فأنا أعلم تمامًا أن مسألة عقد العمل هذه لا أساس لها من الصحة .
تطلّعت إليه بشىء من الارتباك ، قائلة :
- دكتور (بهاء) .. لا أدرى ماذا تقصد !
قال بلهجة صارمة :
- أقصد ما سمعتيه تمامًا .. أتظنين أننى لا أعرف ماذا



يدور داخل مستشفاى ؟! الكل يعلم بقصتك مع الدكتور (يسرى) ، وأنه ظل يحوّم حولك عدة أشهر ، بكلامه المعسول ووعوده الزائفة .. كنت أعلم بالأمر منذ البداية ، ولكننى تغاضيت عنه ، على الرغم من إحساسى بالمسئولية نحوك ، ظنًا منى أن الأمر سينتهى نهاية طيبة وطبيعية ، فعلى حد علمى الدكتور (يسرى) شاب ممتاز ومتفوق فى عمله ، وكان سيسعدنى بالطبع أن أسمع عن ارتباطه بك ، ولكننى لم أكن أعلم الكثير عن أخلاقه ، وعن حياته الخاصة ، إلى أن عرفت مؤخرًا أنه من ذلك النوع من الشباب المستهتر ، الذى يحترف التلاعب بمشاعر الفتيات ، والتغرير بعواطفهن للتسلية ، وممارسة بعض المغامرات العاطفية على حسابهن ، وأسعدنى بالطبع أنك تخلصت منه فى الوقت المناسب ، وإن كنت أعتب عليك أنك لم تصارحينى بنفسك بحقيقة هذه العلاقة منذ البداية ، فقد كان من الجائز جدًا أن تتورطى مع شخص عديم الأخلاق مثله ، وأنت تعرفين أننى أعتبرك مثل ابنتى ، ويهمنى أمرك كثيرًا .

قالت (نادية) بعينين مغرورقتين بالدموع :
- فى الحقيقة يا دكتور (بهاء) هو الذى تخلص منى لا أنا.
سألها مندهشًا :

- كيف؟
أجابته قائلة :
- على النحو الذى اعتاده أمثاله ، عندما يكشفون أنهم يواجهون فتاة صعبة المنال ، ولايمكن الوصول إليها إلا عن طريق الزواج .. لقد طالبته أن تكون العلاقة رسمية بيننا ، وأن يطلبنى منك أنت شخصيًا للزواج ، أو يبتعد كلانا عن الآخر ، فجاءت موافقته سريعة ، على أن ينتهى الأمر بيننا عند هذا الحد .. وكلما أتذكر كيف كان يصوِّر لى مشاعره نحوى ، وهيامه بى ، وأعقد مقارنة بين كلماته ووعوده ، وتلك النهاية السريعة ، التى لم تحتج منه حتى لدقيقة واحدة للتفكير ، أشعر بغضب شديد ومرارة ، لأننى خُدعت فيه على هذا النحو .

الدكتور (بهاء) :

- لاأعتقد أن الأمر يستحق منك أى إحساس بالغضب أو المرارة ، فقد حسمت الأمر معه ، قبل أن تتطوَّر العلاقة بينكما إلى ما هو أسوأ ، وليس فى ذلك مايدعوك إلى ترك المستشفى ، وبالنسبة لى فقد استدعيته إلى مكتبى وعنفته ، وحذرته من أن يحاول التعرض لك مرة أخرى ، كما أننى مستعد لفصله من المستشفى ، فى حالة ما إذا تجاهل تحذيرى له ، على الرغم من أننى عادة لا أخلط



بين العمل والأمور الشخصية ، وعلى الرغم من ثقتى فى كفاءته كطبيب .. ألا يكفيك هذا؟

قالت (نادية) :

- إننى أشعر بأننى لاأستطيع مواجهة نظرات من حولى بالمستشفى ؛ فكلهم يعرفون حقيقة الأمر .

الدكتور (بهاء) :

- وهل ارتكبت خطأ ما ، يجعلك تخشين مواجهة نظرات العاملين بالمستشفى؟

(نادية) :

- يكفينى أن أرى فى أعين البعض نظرات الشماتة . وفى أعين البعض الآخر نظرات العطف والرثاء .. أنت لاتدرى كم يؤلمنى هذا يادكتور (بهاء) ، فضلا عن الغمزات واللَّمزات .. البعض يتكلم عن تلك الفتاة المسكينة ، التى خدعها الدكتور (يسرى) ، وينسج من وحى خياله مايشاء لتشويه سمعتى . والبعض الآخر يسخر من تلك الفتاة الغريرة ، التى ظنت أنها يمكن أن توقع بذلك الطبيب الثرى ، فأوقعها هو فى شباكه ، وحطم غرورها ، وأشياء وأشياء أخرى تُرى هنا وهناك ..

الدكتور (بهاء) :

- تلك الأمور تحدث كثيرًا ، والفتاة القوية الواثقة من نفسها لاتخشى من كلام الناس ، ولا تهاب نظراتهم الشامتة

أو الساخرة ، فمع الوقت تنتهى تلك الأمور ، وتروى فى دائرة النسيان .

(نادية) :

- ولكننى لست قوية . وأشعر بعدم الثقة بنفسى .. إننى أضعف مما تتصور يا دكتور .

الدكتور (بهاء) :

- كلا يا (نادية) أنت لست ضعيفة.. أنت فقط فتاة حساسة، وحساسيتك هذه تسبب لك الكثير من الأذى والمتاعب..

(نادية) :

- ربما .. ولكننى أشعر بأننى بحاجة إلى مغادرة المستشفى فى الوقت الحالى ، على الرغم من تعلقى الشديد بها ، وعلى الرغم من أننى سأفتقدك كثيرًا يا دكتور (بهاء) ، فقد عوضتنى حرمانى من أبوىَّ ، ولن أنسى أفضالك العديدة علىَّ .

الدكتور (بهاء) :

- حسنا .. لقد فهمت .. كل ما هناك أنك بحاجة إلى فترة للابتعاد عن المستشفى ، بعد ما حدث.

حدَق فيها بعينين ثاقبتين ، قائلًا :

- ولكن لايشترط لهذه الفترة أن تكون عدة سنوات فى الغربة .. أليس كذلك ؟



قالت وهى تخفض رأسها :

- لاأخفى عليك يا دكتور (بهاء) ، لقد كذبت بشأن عقد العمل هذا ، ولاأعرف ماذا سأفعل بعد أن أغادر هذا المستشفى ، ولكننى سأسعى للعمل فى أى مستشفى آخر .

الدكتور (بهاء) :

- إذن كنت تنوين أن تغادرينا مغادرة نهائية ، أتتخلين عنا بهذه السهولة ؟!

قالت وهى ماتزال مخفضة الوجه :

- تأكد أن هذا أمر صعب للغاية بالنسبة لى ، ولكن ..

قاطعها قائلًا :

- ولكنك مفرطة الحساسية كما قلت ، ولكن ألم تفكرى فى المكان الذى ستقيمين فيه ، بعد مغادرتنا ؟ أأنت واثقة من أن المستشفى الذى ستنتقلين إليه سيوفر لك إقامة كاملة كما حدث هنا ؟.. الأمر شاق وقاس بالنسبة لفتاة وحيدة وصغيرة السن مثلك !

(نادية) :

- سأحاول أن أتدبَر أمورى .

صمت الدكتور (بهاء) برهة وهو يفكّر ، ثم التفت إليها قائلًا :

- اسمعى يا (نادية) قد يمكننى أن أفرط فيك لفترة من

الوقت ، ولكننى لا أستطيع أن أتخلى عنك وعن مسئوليتى نحوك نهائيًا .. سأحقق لك رغبتك بالابتعاد عن المستشفى لفترة زمنية ، مادمت تريدين ذلك ، وسأوفر لك عملًا طيبا ، تحصلين منه على أجر مجز وإقامة كاملة ، بين أشخاص أثق بهم ..

تطلّعت إليه (نادية) ، وفى عينيها نظرة تساؤل ، فى حين أردف هو قائلًا :

- لقد حدثنى أحد الأشخاص من أسرة أنتمى إليها بصلة قربى بعيدة ، عن ممرضة ترعى أباه المسن المريض ، على أن تقيم إقامة كاملة فى منزل العائلة بكفر الشيخ .. كنت أنوى تكليف (ثناء) هذه المهمة ، لأننى أعتقد أن ظروفها تسمح بذلك ، كما أن لديها القدرة على التعامل مع ذلك النوع من المرضى المسنين ، ولكننى أجد نفسى مضطرًا لعرض الأمر عليك ، إزاء تشبثك بترك المستشفى ، وربما يكفيك بضعة أشهر ، أو حتى عام ، تعودين بعده إلى المستشفى ، بعد أن تهدأ الأمور بالنسبة لك .. فما رأيك؟

تهلّل وجه (نادية) ، وكأنها وجدت فى هذا العرض فرصة سانحة ، وقالت :

- إننى أرحب بذلك يادكتور (بهاء) ، ومستعدة تماما



للقيام بهذا العمل .

قال الدكتور (بهاء) ، دون أن يشاركها هذا الترحيب ، وقد بدا وكأنه غير سعيد بالعرض الذى قدمه .

- خذى وقتك أولًا قبل الموافقة ، فسوف تنتقلين للحياة فى بلد ريفى ، صحيح أنك ستعيشين فى منزل أشبه بالقصر ، ولكن سيكون عليك مرافقة ذلك الرجل بصورة شبه دائمة ، وهو رجل صعب المراس ، على الرغم من مرضه ، وعمره الذى تجاوز الثمانين وسبّب الكثير من المتاعب للكثيرات قبلك ، حتى أن بعضهن لم يستطعن الاستمرار فى عملهن ، أكثر من عشرة أيام فقط ..

ابتسمت (نادية) ، قائلة :

- اطمئن يادكتور .. سأعرف كيف أتعامل معه .

الدكتور (بهاء) :

- ألا تمنحين نفسك مهلة للتفكير؟

(نادية) :

- لست بحاجة للتفكير .. إننى أرى أن رعاية هذا الرجل تناسبنى تمامًا .

عاد يقول محذرًا :

- سيسبب لك هذا الرجل الكثير من المتاعب .

احتفظت (نادية) بابتسامتها ، قائلة :

- دكتور (بهاء) .. أتشك فى كفاءتى؟

دكتور (بهاء) :

- حسن .. متى تحبين الذهاب إلى هناك؟

(نادية) :

- من الغد ، لو أن هذا ممكن .

دكتور (بهاء) :

- إذن مرى علىَّ غداً ، فى التاسعة صباحًا ، حتى أكون قد أعددت لك خطابًا ، تحملينه معك إلى الباشمهندس (عماد) .. إنه الشخص الذى يرعى مصالح الأسرة ، وهو ابن الرجل الذى ستتولين رعايته .. شاب مهذب ، ورجل بكل معنى الكلمة ، فهو لم يركن إلى اللهو والعبث ، وتبديد ثروة أبيه ، بل نجح فى استثمارها استثمارًا جيدًا ، وبفضل الجزء الذى آل إليه من ثروة الأب فى حياته ، استطاع هذا الشاب أن ينمى هذه الثروة ، ويعمل على إضافة المزيد من الأفدنة الزراعية ، لتلك التى حصل عليها من ثروة الأب ، وأن يستثمر المال أيضا فى عدد من المشاريع الأخرى ، على عكس أخيه الآخر (علاء) ، الذى أنفق الجزء الذى آل إليه من ثروة أبيه ، فى اللهو ومظاهر البذخ وموائد القمار ، حتى أتى عليها كلها ، وأصبح يتعيش من الراتب الذى خصصه له أخوه ، للإنفاق منه شهريًا ، وأما الأخت



(هدى) ، فلم يكن حظها بأفضل من حظ أخيها (علاء) ، إذ وقعت بين براثن نصاب محترف ، استطاع أن يلف شباكه حولها ، ويقنعها بالزواج منه ، ثم مالبث أن أتى على ثروتها كلها ، بعد أن هرب بما تبقى منها إلى الخارج ، تاركًا لها ورقة طلاق ، بعد زواج لم يستمر أكثر من عام واحد ، ولولا رجولة (عماد) ونجاحه فى استثمار نصيبه من ثروة أبيه ، على نحو مكّنه من تعويض ما ضاع على يد أخويه ، ومضاعفته أيضا ، لمات الأب حسرة على تفريطه فى ثروته لأبنائه فى حياته ، قبل أن تقضى عليه الشيخوخة والمرض .

قالت (نادية)، وهى تحاول أن تتخيل صورة (عماد) هذا :

- إذن فسأحمل خطابك هذا إلى الابن الأكبر ..

قال الدكتور (بهاء) :

- نعم ، فهو المسئول عن كل أمور الأسرة ، وعن رعاية أبيه المريض ، الذى يحيا فى كنفه كما أخبرتك ..

ثم أردف ، وكأنه يستمتع بالتحدث عن هذا الشاب :

- ومن المؤسف أن هذا الرجل فقد زوجته ، بعد سنتين فقط من زواجه منها ، إذ توفيت إثر حادث أليم ، ولم يرغب فى الزواج بعدها على الرغم من مرور خمس سنوات على موتها ..

قالت (نادية) بنبرة تعبّر عن أسفها :
ـ هل تركت له أبناء؟
الدكتور (بهاء) :
ـ ابنة واحدة ، يحبها حبًا جمًا .
(نادية) :
ـ أعتقد أننى سأتعايش مع هذه الأسرة .
الدكتور (بهاء) :
ـ أرجو ذلك يابنيتى .
(نادية) :
ـ والآن ، هل تسمح لى بالانصراف؛ حتى أعد أمتعتى للسفر؟
الدكتور (بهاء) :
ـ تفضلى يابنيتى .. كنت أود أن أصطحبك إلى هناك بنفسى ، ولكن ظروف المستشفى لاتسمح بذلك ، فى هذه الفترة ، كما تعلمين .

ابتسمت (نادية) ، قائلة بامتنان :
ـ (كفر الشيخ) ليست بعيدة ، ولاأعرف كيف أشكرك يادكتور (بهاء) . .

صافحها الدكتور (بهاء) ، قائلًا :
ـ سأفتقدك كثيرًا يابنيتى ، وأرجو ألا تترددى فى



العودة إلى المستشفى ، فى الوقت الذى يناسبك ، فعملك ومكانك سيبقيان دائما محفوظين لك ، فى أى وقت تقررين فيه العودة ، وحتى بالنسبة لتلك الأسرة التى تذهبين إليها ، لاتحملى همًا أو تشعرى بحرج . إذا ماقررت تركهم ، فسأعرف كيف أدبر لهم الممرضة البديلة ، التى تقوم على رعاية رب الأسرة المريض .

وقفت (نادية) مترددة فى الخروج بعض الشىء ، بعد أن انتهت من مصافحة الدكتور (بهاء) ، فقال لها وقد لاحظ ذلك :
ـ أهناك ماتريدين قوله يا (نادية)؟
قالت متلعثمة :
ـ نعم .. يجب أن تعرف يادكتور (بهاء) .. أننى لم أحب الدكتور (يسرى) هذا .. أعنى أنه لم يكن حبًا بالمعنى المتعارف عليه .. كل ما هنالك أنه أبدى نحوى فى البداية شيئًا من الإعجاب ، ورأيت فيه شخصا مناسبا لى ، فهو على قدر من الوسامة ، وطبيب ناجح .. أعنى أن الأمر لم يكن على النحو الذى يمكن أن تتصوره ، ولكننى مع ذلك شعرت بحرج بالغ فى نفسى ، عندما تبيّن لى أنه كان يخدعنى ، وأنه لم يرغب فى أى وقت فى الزواج منى .. لقد أحسست بفقرى .. ويتمى ، ووضعى الاجتماعى .. وأننى ..

قال الدكتور (بهاء) ، وهو ينظر إلى العبرات المختنقة فى عينيها :

ـ ولماذا تخبريننى بذلك الآن؟

قالت وهى تحاول أن تغالب دموعها :

ـ لاأعرف .. ولكنى شعرت بأننى أريد أن أكشف لك عن ذلك .

اقترب منها الدكتور (بهاء) ، واضعًا يديه على كتفيها ، وهو يقول :

ـ الفقر واليتم والوضع الاجتماعى لم تكن أبدا لتشين صاحبها ، وقيمة الإنسان لاتتحدد إلا باحترامه لنفسه ، وبقوة إرادته وإخلاصه فى عمله ، وأنت تملكين كل هذا يا (نادية) ، وتملكين أيضًا نفسًا شفافة نقية ، لاتعرف الزيف والنفاق والخداع ، وأنا واثق من أن القدر سيكافئك فى النهاية مكافأة سخية ، إذا ما بقيت متمسكة بتلك الصفات الرائعة التى أراها فيك .

* * *

أفاقت (نادية) من شرودها ، على صوت توقف عجلات القطار ، وتطلعت إلى اللافتة الكبيرة على المحطة ، التى تعلن وصول القطار إلى مدينة (كفر الشيخ) ، وأحست بشىء من الاضطراب ، وهى تهبط إلى المحطة ، حاملة حقيبتها فى يدها ..



هاهى ذى تبدأ مواجهة حياة جديدة مختلفة ، بعيدًا عن المستشفى الذى ظل لسنوات عديدة محور حياتها وعالمها ، مع أسرة غريبة ، لاتعرف عنها أكثر من تلك الكلمات البسيطة ، التى أخبرها بها الدكتور (بهاء) ، ولابد أن تعترف لنفسها أنها ، على الرغم من الابتسامة التى استقبلت بها ذلك العرض ، الذى قدمه لها الدكتور (بهاء) فى البداية ، إلا أنها أحست بأنها تقبله مرغمة فيما بعد ؛ فهى تشك كثيرًا فى قدرتها كممرضة خاصة على عكس انخراطها ضمن فريق من الممرضات داخل مستشفى الدكتور (بهاء) ، ولكنها وافقت على العرض ، وعلى العمل الجديد ، دون أن تمنح نفسها فرصة للتفكير ، كما طالبها بذلك الدكتور (بهاء) ، وعليها إذن أن تكون رابطة الجأش ، ومستعدة لتحمل مسئولية هذا العمل ، والقيام بدور الممرضة الخاصة على أفضل وجه ، مادام هذا هو اختيارها ، ومادامت هذه هى إرادتها .. وأشارت (نادية) لإحدى سيارات الأجرة ، لكى تنقلها إلى البلدة ، التى تقيم بها أسرة المهندس (عماد) ، وهى تتأهب للقيام بعملها الجديد ..

وحياتها الجديدة ..

* * *

## ٢ ـ اللقاء ..

لم تتح لـ(نادية) الفرصة طويلا ، لكى تتأمَّل المنزل الذى ستقيم فيه ، إذ ما أن اجتازت البوابة المعدنية المفتوحة ، حتى هرع فى اتجاهها كلبان ضخمان وهما ينبحان بشدة ، وعيونهما تنطق بالشر ، فأطلقت صرخة مدوية ، دون أن تقوى على الهروب والتراجع ، وتسمَّرت قدماها من شدة الخوف ، لكنها مالبثت أن سمعت صوتًا آمرًا ، يصيح فى الكلبين ليأمرهما بالتوقُّف ، وكان لهذا أثر فعَّال ، إذ أطاعه الكلبان على الفور ، وإن ظلا ينبحان وهما يراقبانها بعيون متحفزة ..

واقترب صاحب الصوت ، وهو شخص بدين أسمر اللون ، يرتدى جلبابًا بلديًا ، ليأمر الكلبين بالعودة من حيث أتيا ..

وفى هذه المرة أطاعاه ، وقد بدا أن له تأثيرًا قويًا عليهما ، وابتسم الرجل قائلًا :

ـ آسف يا هانم .. هذه الكلاب تسبِّب الكثير من المشاكل ، ولكن لاغنى عنها ؛ فهى تحرس المنزل ، و ...

أحسَّ أنه اندفع فى تبسطه معها ، دون أن يسألها عمن



تكون ، وعن سبب حضورها إلى هذا المكان ، فاصطنع تعبيرًا صارمًا على وجهه ، لم يكن يناسبه وهو يقول :

ـ ولكن من حضرتك؟

قبل أن تجيبه (نادية) على سؤاله ، سمعت صوتًا قويًا ينادى قائلًا :

ـ عبد العظيم .. لماذا تنبح الكلاب هكذا؟

نظرت (نادية) إلى مصدر الصوت ، فرأت شخصًا يطل من شرفة فى الطابق الثانى ، من المبنى الشبيه بالقصر ، كما أخبرها الدكتور (بهاء) ، وعلى الرغم من أنه كان بعيدًا عنها بعض الشىء ، إلا أنها استطاعت أن تتبيَّن ملامحه ..

كان يبدو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، له وسامة رجولية واضحة ، ولقد أسرع (عبد العظيم) يهرول نحوه ، قائلًا :

ـ لقد لمحت الكلاب سيدة تقترب من الفيلا ، فأخذت تنبح عليها .

قال صاحب الصوت ، وهو يلقى نظرة فاحصة على (نادية) :

ـ ولماذا لم تحكم إغلاق البوابة الخارجية؟.. ألم أنبهك إلى ذلك أكثر من مرة؟

رد عليه (عبد العظيم) قائلًا :

ـ آسف يا (عماد) بك .. كنت فى طريقى إلى إغلاقها .

قالت لنفسها .

ـ إذن هذا هو (عماد) ، الذى يتولى شئون الأسرة ..

وعاد (عماد) يقول ، بتلك النبرة الرجولية الخشنة :

ـ ومن هذه السيدة؟

نظر (عبد العظيم) فى اتجاهها ، وكأنه يناشدها أن تسرع بإخباره بالاسم ، قبل أن يغضب سيده ، لتهاونه فى عدم معرفة شخصيتها حتى الآن ، على الرغم من أنه قد سمح لها بدخول الفيلا ، ولكنها انفعلت قائلة بحدة ، وهى تنظر فى اتجاه (عماد) :

ـ لست سيدة ، ولكننى آنسة .

رمقها بنظرة تنم عن استخفافه بها ، قائلًا :

ـ فليكن .. من أنتِ؟.. وما الذى جاء بك إلى هنا؟

ردت عليه ، قائلة :

ـ ألا توجد وسيلة أخرى أقدم بها نفسى ، دون هذه الهتافات؟

صمت برهة ، ثم قال موجهًا حديثه إلى (عبد العظيم) :

ـ حسن .. دعها تدخل إلى الردهة ، وسوف أهبط لأرى من تكون؟



أثارتها لهجته ، وقد بدا لها أنها لن تتأقلم مع هذا الرجل أبدًا ، ولكنها لم تكن تنوى التراجع ، فسارت مع (عبد العظيم) ، الذى اصطحبها الى الداخل ، وفتح لها باب القاعة ، قائلًا :

ـ تفضلى يا هانم .

ثم همس لها وكأنه يعتذر عن لهجة سيده ، قائلًا :

ـ لاتغضبى من لهجة البك .. إنه يبدو فى بعض الأحيان عصبى المزاج قليلًا ، ولكنه طيب القلب ، والكل هنا يحبه ، ويدعو له بالخير ، فهو كريم وشهم ، و ...

قطع حديثه عندما رأى سيِّده ، وهو يهبط فى درجات السلم الخشبى للفيلا ، متجهًا نحو الردهة ، حيث اقترب من (نادية) ، وتلك النظرة المتجهمة مرتسمة على وجهه ، قائلًا :

ـ أعتقد أنه يمكننا الآن أن نتعارف .

كان طويل القامة بشكل ملحوظ ، وبدت وسامته الرجولية أكثر وضوحًا ، بشاربه الأسود المنسَّق ، وشعره الفاحم ، الذى تهدلت بعض خصلاته على جبينه ، وعينيه العسليتين اللتين كانتا تشعان سحرًا وجاذبية ..

وارتبكت (نادية) بعض الشىء ، وهى ترد عليه بتلعثم :

ـ اسمى (نادية) .. (نادية توفيق) .

ظلَّ يحدق فيها ، وكأنه ينتظر منها أن تكمل ، كما لو كان اسمها لايعنى بالنسبة له شيئًا ، فمدت له يدها بخطاب التوصية ، الذى قدمه لها الدكتور (بهاء) ، فتناوله منها وهو ينظر إليها مستغربًا ، ثم مالبث أن فض المظروف ، وأخذ فى مطالعة الخطاب ، وما أن انتهى من قراءته حتى تبدلت ملامحه ولانت قليلًا ، وهو ينظر إليها قائلًا :

ـ لماذا لم تخبرينى منذ البداية أنك الممرضة الجديدة؟

هتف (عبد العظيم) ، كما لو كان قد فوجئ بوظيفة (نادية) :

ـ الممرضة؟!

ونظر إليها وقد بدا عليه الأسف لمبالغته فى احترامها ، ومناداتها بالهانم ، ولكن (عماد) حدجه بنظرة صارمة ، وهو يصيح فيه ، أمازلت هنا؟! هل أغلقت البوابة الخارجية ، أم مازالت مفتوحة؟

ارتبك (عبد العظيم) ، وقد أنسته تلك النبرة الصارمة فى صوت سيده استخفافه بالفتاة ، فقال متلعثمًا :

ـ سأذهب لإغلاقها .. لقد كنت أنتظر لأرى إذا ماكنت ستحتاج إلىَّ أم لا .

قال (عماد) بصوته القوى :

ـ عندما أحتاج إليك سأستدعيك .. اذهب لتغلق



البوابة ، وتأكد أننى لن أتسامح معك مرة أخرى ، إذا مارأيتها مفتوحة دون مبرِّر .

قال (عبد العظيم) ، وقد ازداد تلعثمه :

ـ حاضر يابك .. سأغلقها فورًا ..

هرول خارجًا من باب الفيلا ، فى حين بقى (عماد) يتابعه بتلك النظرة الصارمة ..

كان من الواضح أنه يمتلك شخصية قوية مؤثرة ، وتراوحت أحاسيس (نادية) بين خشيتها منه ، وإعجابها السريع به ، وعاد هو يلتفت إليها ، وهو يدعوها إلى الجلوس ، قائلًا :

ـ تفضلى .

اختارت (نادية) لنفسها أحد المقاعد القريبة من الباب ، وكأنها تتأهب للهرب فى أية لحظة ، فى حين جلس (عماد) على المقعد القريب منها ، قائلًا وهو يرسم ابتسامة غير واضحة المعالم على وجهه :

ـ الدكتور (بهاء) يمتدحك كثيرًا فى خطابه ، ويبدو أنه يحمل لك تقديرًا خاصًا .

ردت قائلة :

ـ الدكتور (بهاء) شخص كريم الأخلاق .. لقد تولانى برعايته ، كما لو كنت ابنته ، طوال عملى بالمستشفى .

تأملها (عماد) ، قائلًا :

- آسف للطريقة التى استقبلتك بها ، ولكننى تعرضت لبعض المشاكل المتعلقة بالعمل هنا ليلة أمس ، مما جعلنى عصبيًا بعض الشىء .

قالت ، وقد أثرت فيها لهجته الأكثر ودًا :

- لم يحدث مايوجب الأسف ، فأنا التى أقحمت نفسى داخل الفيلا ، دون استئذان ، ولكننى رأيت البوابة مفتوحة ، ولم يكن هناك أحد بالقرب من مدخل الفيلا ، حتى يمكننى الاستئذان منه :

عاد لنبرته المتشددة مرة أخرى ، قائلًا :

- نعم .. نعم .. أعرف أنه خطأ البواب (عبد العظيم) ، فهو يهمل القيام بعمله دائمًا ، ولولا السنون الطويلة التى قضاها معنا ، لفصلته من عمله .

ثم صمت قليلًا ، قبل أن يقول :

- بالمناسبة .. نسيت أن أقدم نفسى .. (عماد فهمى) .

ردت قائلة :

- تشرّفنا .

(عماد) :

- إننى أقيم هنا مع والدى وابنتى .. لقد توفيت زوجتى منذ عدة سنوات ؛ ولايشاركنا هذه الفيلا سوى (فوزية) ،



التى تعمل على تدبير أمور المنزل ، من تنظيف وطهى وخلافه ، وترفض أن يشاركها أحد هذا العمل ، برغم أعبائه الكبيرة ، وبرغم عمرها الذى يشارف الخمسين ، ولكننا نعتبرها جزءًا من أفراد الأسرة ، فهى تقيم معنا من قبل وفاة المرحومة والدتى ، وذلك الرجل ، الذى رأيته ، هو (عبد العظيم) ، خفير وبوّاب الفيلا .. هؤلاء هم من يقيمون فى هذا المكان .

قالت (نادية) بشىء من الاستغراب :

- ولكن الدكتور (بهاء) أخبرنى بوجود أخ وأخت أشقاء لحضرتك أيضًا .

ابتسم (عماد) قائلًا :

- آه .. تقصدين (هدى) و(علاء) .. كلا إنهما لايقيمان معنا هنا ، فهما يعيشان فى (القاهرة) .. لاطاقة لهما بحياة الريف وأمور الزراعة .. (علاء) يدير بعض أعمالى فى (القاهرة) ، وهدى تعيش مع عمتها ، حيث تمارس هوايتها فى رسم اللوحات الفنية ، ويحضران إلى هنا لقضاء شهر أو بضعة أسابيع فى كل عام معنا .. وعلى كل حال ، سيمكنك تعرّفهما قريبًا ، فهما ينويان الحضور الأسبوع القادم ، وستكون معهما عمتى أيضا .. أعتقد أنها فرصة طيبة لكى يلتقوا بك .

أحس بشىء غريب يكتنفه ، فلم يسبق له التبسط مع شخص غريب ، على هذا النحو الذى يتبسط به مع الفتاة ، التى لم يلتق بها إلا منذ دقائق قليلة ..

لقد وجد نفسه يتحدث معها فى ألفة ، ويحدثها عن عائلته ، وكأنه يعرفها منذ فترة بعيدة ..

ولكنه سُرعان ماطرد هذا الإحساس عن تفكيره ، وحاول أن يقنع نفسه بأن هذا أمر طبيعى ، فمادامت الفتاة ستقيم معهم هنا ، فلابد لها من أن تتعرف عائلته ، والأشخاص الذين ستشاركهم الحياة فى هذا المكان ، أو الذين ستلتقى بهم ..

أما (نادية) فقد أدهشها هذا التحول السريع فى شخصيته ، من الجدية والصرامة والاستخفاف ، إلى هذه الألفة ، التى جعلته يروى لها بعض الأشياء الخاصة بأفراد أسرته ، ولكن الشىء الذى بقى ثابتًا لايتغير فيه ، هو تلك الوسامة الرجولية التى تميّزه ، وتلك النظرة الساحرة فى عينيه .. عليها أن تعترف بأنه قد أحدث أثرًا سريعًا فى نفسها ، وبأنها معجبة به ..

قال لها ، وهو ينهض من فوق مقعده ، محاولًا العودة إلى جديته السابقة :

ـ عليك أن تعرفى أن مهمتك هنا ستكون صعبة للغاية ،



فأبى رجل من الصعب إرضاؤه أو إخضاعه لتعليمات الأطباء ، على الرغم من خطورة مرضه الحقيقية ، فهناك أشياء تتعلق بمرضه ، وأشياء أخرى تتعلق بشخصيته ، يتعين عليك مراعاتها والتعامل معها ، وهناك الكثيرات قبلك ، لم يمكنهنّ التعامل معه ، وأسرعن بالفرار من هذا المكان ، بعد بضعة أسابيع ، وبعضهن بعد بضعة أيام ؛ لذا فهو يحتاج إلى معاملة من نوع خاص ، ولقد رأيت من واجبى أن أنبهك إلى ذلك مسبقًا .

ابتسمت (نادية) قائلة :

ـ اطمئن يا أستاذ (عماد) إننى أجيد أداء عملى .

ابتسم لها بدوره ، قائلًا :

ـ أرجو أن تبقى محتفظة بثقتك هذه حتى النهاية .

وضاعفت ابتسامته من جاذبيته ، فأحسّت (نادية) بشىء من الارتباك ، وقد خشيت أن يلحظ التأثير الذى أحدثه عليها .

قالت وهى تخفض عينيها إلى الأرض :

ـ ألا يمكننى أن أرى مريضى الآن ؟

(عماد) :

ـ كلا .. إنك الآن مرهقة من السفر .. ستحصلين أولًا على حمام ساخن ، وقسط من الراحة ، ثم تتعارفان بعد تناول الغداء .. وستصاحبك (فوزية) إلى حجرتك .

ثم نادى (فوزية) ، التى جاءت على عجل ، وهى تختلس النظر إلى الفتاة ، وقدمها لها قائلًا :

ـ (فوزية) .. الممرضة الجديدة ، التى ستتولى العناية بالحاج .

صافحتها (فوزية) بشىء من الحذر ، وهى ترحّب بها قائلة :

ـ أهلًا وسهلًا يابنيتى .

(عماد) :

ـ أرشديها إلى حجرتها ، وأعدّى لها حمامًا دافئًا .

قالت (فوزية) ، وهى تصحبها إلى غرفتها :

ـ أهلا بك ياست (نادية) ..

(نادية) :

ـ أهلا بك ياست (فوزية) .

(فوزية) :

ـ إنك تبدين طيبة وابنة حلال .. لقد انفتح قلبى لك منذ الوهلة الأولى .

(نادية) :

ـ وأنا أيضا ارتحت لك ، فأنت تشبهين كثيرًا المرحومة والدتى .

(فوزية) :



ـ هل والدتك متوفية ؟

(نادية) :

ـ وأبى أيضًا .. إننى يتيمة الأب والأم .

ارتسمت ملامح الشفقة على وجه المرأة ، وهى تقول :

ـ ياللفتاة المسكينة .. إنك مازلت صغيرة على هذا اليتم المبكّر ، ولكن ماذا نقول ؟! إنها إرادة الله .

وقالت ، وهى تفتح باب الغرفة :

ـ ستواجهين بعض المتاعب مع الحاج (فهمى) ، ولكنه فى النهاية رجل طيب القلب ، ويحتاج فقط إلى من يفهمه ويراعى حالته المرضية .

ابتسمت (نادية) قائلة :

ـ أعلم ذلك .. لقد تلقيت هذا التحذير من قبل ، وسوف أعمل على بذل جهدى معه .

همست قائلة :

ـ أعتقد أن ابنه الأستاذ (عماد) أيضا شخص طيب ، على الرغم مما يبدو على مظهره من خشونة .

(فوزية) :

ـ لديه بعض العذر يابنيتى ، فهو يحمل هم العائلة بأسرها على كاهله .. أحيانا يصعب التفاهم معه ، ولكنه لا يقل طيبة عن أبيه ، وهو رجل بكل معنى الكلمة ، يقدّر الواجب والمسئولية .

تلفتت (فوزية) حولها ، قبل أن تهمس فى أذن (نادية) قائلة :

- إذا كان هناك من يجب أن تحذريه فهى الست (أمينة) ، أخت الحاج (فهمى) ، وعمة الأولاد .. إنها تقضى شهرًا كل عام هنا ، ولكنها تجلب معها الكثير من المتاعب والمشاكل دائمًا ، والكل يخشاها ، حتى الحاج (فهمى) نفسه ، ويعمل لها ألف حساب .. إنها ستحضر إلى الفيلا قريبًا ، فى صحبة شقيقى الأستاذ (عماد) ، وعليك أن تكونى حذرة منها للغاية ، وتعملى على كسب رضائها ، حتى ينتهى هذا الشهر الذى تقضيه هنا على خير .

(نادية) :

- وماذا عن ابنة الأستاذ (عماد)؟

(فوزية) :

- (ريم) .. حفظها الله .. أنها أشبه بالملاك ، وهى أيضا مسكينة .. توفيت أمها قبل أن تتم العام الثانى من عمرها ، ولكن (عماد) بك لم يُقصِّر مطلقًا فى حقها ، فقد رفض الزواج من أجلها ، وقام لها بدور الأب والأم معًا .. إنه يعبدها عبادة .

(نادية) :



- أعتقد أننى سأحبها ؛ فلدى ضعف خاص تجاه أولئك الذين حرموا من حنان الوالدين ، أو أحدهما .

قالت (فوزية) ، وهى ترشدها إلى الحمام :

- أرجو أن تطيب لك الإقامة معنا هنا .. سأعد لك الطعام حتى تنتهى من حمامك ..

كانت البداية طيبة ومشجعة ، حتى هذه اللحظة ، وأحسَّت (نادية) أنها لن تحتاج إلى وقت طويل ، لكى تتأقلم مع المكان والناس هنا ، ولكى تنسى قصتها العابرة مع الدكتور (يسرى) ..

تنساها تمامًا ..

* * *



## ٣ـ إحساس مبهم ..

هتف (عماد) ، قائلًا وهو يستدعى مدبّرة المنزل :

ـ (فوزية) .. أين أبى ؟

هرولت إليه قائلة :

ـ لاأدرى .. أليس فى غرفته ؟

قال بانزعاج :

ـ كلا .. لقد بحثت عنه فى غرفته الحديثة فلم أجده .. لقد أخبرته أكثر من مرة ألا يذهب إلى أى مكان داخل الفيلا ، قبل أن يخبرنا .. ألا يستجيب لكلام أحد أبدًا .

وفى تلك اللحظة اقتحمت الردهة طفلة صغيرة ، ذات شعر ذهبى قصير ، وعينين عسليتين تشبهان عينى أبيها .. كانت تبدو فى السادسة من عمرها ، إلا أن ملامح الذكاء والجدية كانت واضحة على وجهها ، وهى تقترب من أبيها ، قائلة بهمس :

ـ أبى .. هل تريد أن تعرف أين ذهب جدى ؟ .. إنه فى المكتبة .

هتف (عماد) بانزعاج :

ـ فى المكتبة .. لابد أنه قلبها رأسًا على عقب الآن .. لقد أخبرته من قبل ألا يدخل هذه المكتبة دون إذنى ، أو يطلب منى الكتاب الذى يحتاج إليه فأحضره له .. ثم إن عينيه تتعبان من القراءة ..

وفى تلك اللحظة فُتح باب المكتبة ، وخرج منه الأب جالسًا على مقعد متحرِّك ، وفى يده كتاب ..

كان من الواضح أن الزمن والمرض قد نالا من هذا الشيخ المسن ، ولكن ملامح وجهه الغاضبة كانت تنطق بالصلابة على الرغم من ترهلها ، وصاح بانفعال وهو يواجه ابنه :

ـ إذن ؟!. هل تريد منى أن أحصل على إذن منك ، لكى أتنقَّل فى بيتى ؟!

(عماد) :

ـ أبى أنت تعرف أن ظروفك الصحية لا تحتمل .

قال الأب ، وهو مستمر فى انفعاله :

ـ اصمت .. لست بحاجة إلى نصائحك .. من حقى أن أذهب إلى أى مكان فى بيتى ، أم أنك نسيت أنه مايزال بيتى .

قال (عماد) ، وقد أحسّ بالقلق عليه ، من هذا الانفعال :

ـ حسن .. حسن .. اهدأ ، ولا داعى لهذا الانفعال .

ولكن الأب لم يستجب لرجاء ابنه ، واستمر فى صياحه قائلًا :

ـ أتعتقد لأننى أوكلت لك إدارة الأمور فى ممتلكاتى ، ومنحتك أموالى فى حياتى ، أنك تستطيع أن تلغى وجودى .

وفجأة انتابته نوبة من السعال الحاد ، احتقن لها وجهه ، فتضاعفت ملامح القلق على وجه (عماد) ، وهو يهتف فى (فوزية) قائلًا :

ـ (فوزية) .. أسرعى بإحضار الدواء من حجرته فورًا .

ولكن المرأة وقفت حائرة مرتبكة ، وهى تسأل قائلة :

ـ ولكن أى نوع من الدواء؟

صاح فيها (عماد) ، قائلًا :

ـ أما زلت واقفة ؟!.. أحضرى كل الأدوية .

وفى تلك اللحظة ، رأى الجميع (نادية) وهى تقفز درجات السلم ، حاملة فى يدها زجاجة دواء ، وهى تهتف قائلة :

ـ لقد أتيت بالدواء المطلوب .

أسرعت بصبّ ملعقة من الدواء ، لتسقى بها الأب ، الذى ازداد احتقان وجهه ، وما هى إلا لحظات ، حتى هدأت



حدة السعال ، ليختفى تدريجيًا ، ويعود وجهه إلى حالته الطبيعية ، فقال (عماد) ، وقد زايله القلق :

ـ حمدًا لله .. لقد جئت فى الوقت المناسب ، فتلك النوبات من السعال تسبب له متاعب صحية عديدة ، إذا استمرت لأكثر من خمس دقائق .

(نادية) :

ـ أنا آسفة .. لقد كنت فى طريقى إلى الردهة ، عندما سمعت الحوار الذى دار بينكما ، فآثرت ألا أهبط حتى تنتهيا من حديثكما ، ولكن عندما سمعت ذلك السعال الحاد ، سمحت لنفسى أن أقتحم حجرة الحاج (فهمى) ، وجئت بالدواء المطلوب ، حسب الحالة التى شرحها لى الدكتور (بهاء) .

(عماد) :

ـ ولكن كيف تعرّفت غرفة أبى؟

(نادية) :

ـ لقد خمنت أنه من الطبيعى أن تكون هى الحجرة المجاورة لحجرتى ، مادمت سأقوم على خدمته ؛ لذا سارعت بدخولها دون إذن وإحضار الدواء .

(عماد) :

ـ أنك تحسنين استخدام سرعة بديهتك .

وقال له الأب ، وهو ينظر إلى (نادية) شذرا ، ودون أن يبدو عليه أى شعور بالامتنان نحوها ، لمبادرتها بإنقاذه من تلك النوبة الحادة من السعال .

- من هذه ؟

وعرَّفه (عماد) بها ، قائلًا :

- إنها ممرضتك الجديدة الآنسة (نادية) .

بدا عليه الامتعاض ، وهو يقول بلهجة تنم عن عدم الرضاء :

- ممرضة مرة أخرى .. إننى لست بحاجة إلى ممرضات .. إنهم يزدن من مرضى .

(عماد) :

- بل أنت بحاجة إلى وجود ممرضة إلى جانبك ، وأنت تعرف ذلك جيدًا ؛ لأن حالتك تحتاج إلى وجود رعاية دائمة .

صاح الأب ، وقد عاد إلى انفعاله مرة أخرى ، قائلًا :

- من قال إننى بحاجة إلى رعاية ؟

قال (عماد) ، وقد بدأ يشعر بنفاد صبره :

- الأطباء .

الأب :

- تبًا لأولئك الأطباء .



(عماد) :

- أبى ألا تستطيع التوقف عن الصياح ، وترديد مثل هذه الألفاظ غير اللائقة ؟

وقالت له (نادية) بصوت هادى :

- تأكد ياسيدى أننى سأبذل كل جهدى لراحتك والعناية بك ، ولن أسبِّب لك أى إزعاج .. اللهم إلا ماتقتضيه واجبات عملى كممرضة .

حَدَجَها الأب بنظرة فاحصة ، وهو يقول :

- وهذا هو المزعج فى الأمر .

(عماد) :

- لقد جاءت هذه الفتاة إلى هنا بناءً ، على توصية الدكتور (بهاء) .

تحوَّل إليه الأب ، قائلًا :

- الدكتور (بهاء) هذا لايجلب لنا إلا المتاعب .. ما علينا مادمت قد عينتها لتمريضى ، فعلىَّ أن أستفيد من خدمتها .. هيا اذهبى إلى حجرتى ، وأعيدى هذه الزجاجة إلى مكانها ، ثم أحضرى لى منظار القراءة ؛ حتى يتسنى لى مطالعة هذا الكتاب .

ابتسمت له ، وقد سرَّها أنه تقبلها أخيرًا ، وقالت :

- سآتى لك به فورًا .

وأسرعت ترتقى درجات السلم ، لإحضار المنظار ، فى حين التفت (عماد) إلى أبيه ، قائلًا :

- هذه الفتاة تبدو مخلصة فى عملها ، فلا داعى لأن تعمل على دفعها إلى الفرار ، كما فعلت مع الأخريات .

ولكن الأب لم يهتم بالرد عليه ، واندفع بمقعده المتحرك نحو النافذة التى تتوسط الردهة ، قائلًا :

- (فوزية) أزيحى هذه الستائر .

أسرعت (فوزية) تلبى مطلبه ، فى حين صعد (عماد) فى درجات السلم الخشبى ، فى أثر (نادية) ، ليلحق بها ، وهى تبحثِ عن منظار أبيه فى حجرته ، حيث فتح أحد الأدراج ، وتناول منه المنظار ، ليقدمه إليها ، قائلًا :

- هذا هو المنظار .

ابتسمت (نادية) قائلة :

- شكرًا .. معذرة ، فأنا لم أتعرَّف بعد أماكن الأشياء الخاصة بالحاج .

(عماد) :

- أنا الذى يجب أن يعتذر عن المقابلة الجافة ، التى قابلك بها والدى ، ولو أننى قابلتك أمس مقابلة لا تقل عنها جفافًا .

قالت بتلك النبرة الهادئة ، التى تميِّز صوتها :



- لم يحدث شىء يستوجب الاعتذار ، وتلك الأمور نعتادها فى عملنا .. إننى سأعمل على اكتساب ثقته أولا ، حتى يمكننى القيام بعملى تجاهه .

حدَجها (عماد) بنظرة فاحصة ، وهو يقول :

- أعتقد أنك تستحقين أن تكونى موضعًا للثقة .

(نادية) :

- ولكن الدكتور (بهاء) لم يخبرنى أنه .. أعنى ..

(عماد) :

- تقصدين ذلك المقعد المتحرك ذا العجلات .. فى الواقع إن أبى ليس مقعدًا كما تظنين ، ولكن عظامه واهنة وضعيفةَ للغاية ، لاتسمح له إلا بقدر بسيط من الحركة ، كما أن حالة القلب لديه أيضا لاتسمح له بتجاوز الحد المطلوب من الجهد ؛ لذا فهو يعتمد غالبًا على ذلك المقعد فى حركته ، ولا يلجأ إلى استخدام قدميه إلا فى حالات الضرورة ، ووفقا لتحسّن حالته الصحية ، ولبضع دقائق قليلة .

وفى تلك اللحظة اقتحمت الطفلة الحجرة عليهما ، واقتربت فى براءة من (نادية) ، قائلة :

- هل ستغضبين من جدّى ، وتتركين المنزل أنت الأخرى ؟

ابتسمت (نادية) ، وهى تمسح بيدها على شعرها ، قائلة :

ـ كلا ياحبيبتى .. سأبقى ، إذا كنت تريدين أن أبقى معكم هنا .

ابتسمت لها الطفلة بدورها ، قائلة :

ـ نعم .. أريد ذلك ؛ فأنت أجمل بكثير من الأخريات ، اللاتى جئن إلى هنا .

جلست (نادية) أمامها ، وأمسكت بكفيها ، قائلة :

ـ ما اسمك ياحبيبتى ؟

أجابتها الطفلة ، قائلة :

ـ (ريم) .

(نادية) :

ـ وأنا اسمى (نادية) .. إنك لطيفة للغاية ، وأعتقد أننا سنصبح أصدقاء .

(ريم) :

ـ مادمنا سنصبح أصدقاء ، فهل ستسمحين لى أن ألعب معك ؟

ابتسمت (نادية) ، قائلة :

ـ بالطبع ياحبيبتى .. سنلعب معًا ، ولكن عندما لا أكون مشغولة برعاية جدك .



ضحكت الطفلة قائلة :

ـ سيكون هذا شيئًا رائعًا .. سأحضر لك عرائسى لتريها ، واندفعت خارجة من الغرفة ، والأب يتابعها بنظراته الحنون .. ثم التفت إلى (نادية) قائلًا :

ـ أشكرك على هذه المعاملة اللطيفة لابنتى .. لقد فقدت أمها فى سن مبكرة ؛ لذا فهى كما ترين محرومة من حنان الأمومة ، على الرغم من أننى حاولت أن أقوم لها بدورى الأب والأم معًا ، ويبدو أن الرجل لايستطيع أن يقوم بهذا الدور ، كما يجب ، فهى بحاجة إلى اللمسة الأنثوية .. أعنى شيئًا من هذه الرقة ، التى حادثتها بها ، وذلك الاهتمام اللطيف بطفلة مثلها ، إننى أعرف أنك جئت إلى هنا للعمل كممرضة ترعين والدى المريض ، ولكن ليتك تفسحين صدرك لابنتى إذا سمح وقتك وظروفك بذلك ، لتمنحيها شيئًا من هذا الاهتمام الذى رأيته الآن ، خاصة وأننى أرى أنها قد تآلفت معك سريعًا ، بعكس الأخريات اللاتى جئن إلى هنا ، وتأثرت (نادية) من حديثه ، فقالت له والابتسامة تغلف وجهها :

ـ تأكد أننى سأفعل ما بوسعى لإسعاد ابنتك ، طوال

إقامتى هنا ، وسأعتبر نفسى مسئولة عنها ، بقدر مسئوليتى عن والدك .

صافحها بحرارة وامتنان ، قائلا :

ـ أشكرك .. أشكرك كثيرًا .. وتأكدى أننى لن أنسى لك هذا .

أحسّت ببعض الارتباك ، حينما لامست يده يدها ، خاصة وقد بقيت راحته فى راحتها لبرهة من الوقت .. ويبدو أنه لاحظ هذا الارتباك على وجهها ، فأصابه هذا باضطراب مماثل ، جعله يسحب يده من يدها سريعًا ، وسعل دون ضرورة ، ليخفى اضطرابه ، فى حين قالت له هى :

ـ بعد إذنك .. والدك فى انتظار منظاره .

أفسح لها الطريق أمام الباب ، قائلًا وقد تذكر أنها حضرت إلى غرفة أبيه خصيصا لإحضار المنظار :

ـ آه .. بالطبع .. تفضلى .

وتابعها بنظراته وهى تغادر الغرفة ، وقد اعتراه إحساس مبهم ، جعله يتسمّر فى مكانه لبرهة من الوقت ، وما لبث أن هز رأسه بقوة ، وكأنه ينفض عن نفسه هذا الإحساس ، ثم غادر الغرفة بدوره ، ليلحق بالفتاة وأبيه

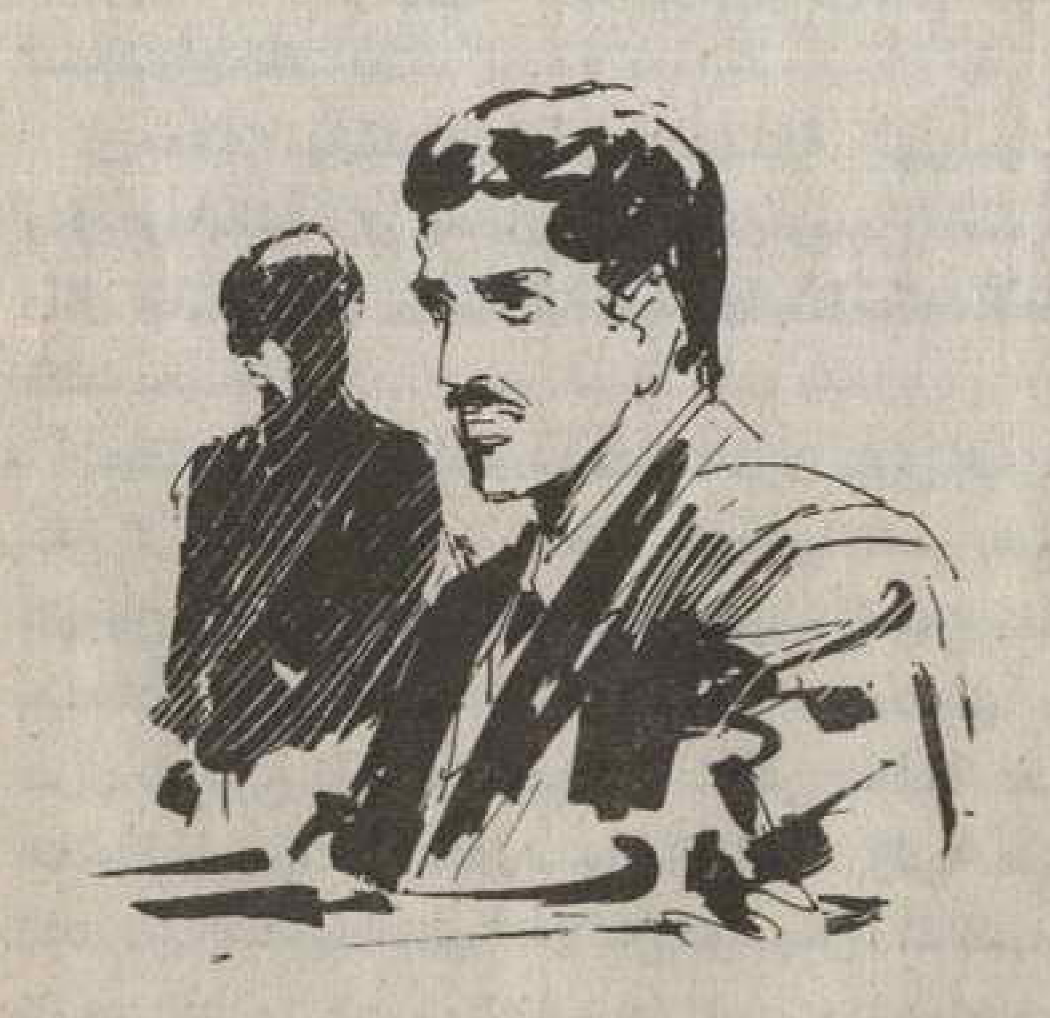


فى الردهة ، مصطحبا معه ابنته التى جاءت بدورها لتبحث عن (نادية) ومعها عرائسها ودُماها ، وهو يشعر فى أعماقه بالقلق ، والحيرة ، و ..

وبشىء غامض لم يدر كنهه ..

لم يدره أبدًا .

* * *



## ٤ ـ دعنى أرحل ..

أحسَّت (نادية) بشيء من عدم الارتياح ، لابسبب ماتوقَّعته من ثقل الواجب الملقى على عاتقها ، ولكن بسبب ذلك الأثر الذى أحدثه فى نفسها (عماد) .. إنها لاتدرى لماذا تشعر بكل هذا الاضطراب والارتباك ، كلما تصادف أن التقت به .

إن معاملته لها تبدو طبيعية وعادية للغاية ، فهو أحيانا ودود وأحيانا أخرى يتعامل معها بشكل رسمى جاف ، ولكن هناك شيء ما يجذبها إليه ويصيبها بالارتباك ، كلما التقت به .

أحيانا تخشى هذا اللقاء ، وأحيانًا أخرى تتوق إليه ، على الرغم منها ، وهذا بالتحديد مايجعلها تشعر بعدم الارتياح ، .. أما الأب فكان عنيدًا وسيىء الطباع كما توقعت ، ولكنها صمدت لعناده وقسوته فى معاملتها ، طوال الأسبوع الذى مر عليها هنا . وفى الحقيقة فقد أدهشها أن رجلًا مثله يقترب من الثمانين ، ولديه هذا القدر من المتاعب الصحية ، وعلى الرغم من ذلك فلديه كل هذا القدر من الحزم والعناد ، حتى ليبدو وكأنه يتحدى



مرضه ، ويتمسك بالحياة إلى آخر لحظة فيها .. كان يرهقها بمطالبه التى لاتنقطع ، ويثور عليها لأتفه الأسباب ، ولكنها لم تكرهه ، بل كانت تشعر بشفقة حقيقية عليه كلما داهمته نوبات المرض .. وكانت تزداد شفقتها ، كلما رأته يصارع المرض ، ويحاول التغلب عليه ، والتماسك أمامها إلى أقصى درجة .. كانت تشفق عليه وتعجب به . فى نفس الوقت ، لكل هذا القدر الذى يملكه من قوة الإرادة ، التى تميزه كرجل ، وكلما نظرت إلى (عماد) برجولته الظاهرة وقوة شخصيته تذكرت الأب ، إذ كان التشابه بينهما كبيرًا ، ويبدو أن هذا هو ما دفع الحاج (فهمى) لأن يولى ابنه إدارة شئون الأسرة ...

وتوطَّدت صلة حميمة بين (نادية) والطفلة ، جعلتها تتعلق بها على نحو شديد ، حتى أنها كانت تلاحقها أينما ذهبت ، وفى اللحظات التى كانت تتطلَّب من (نادية) العناية بجدها ، كانت تطلب منها أن تنتظرها حتى تؤدى واجبها ، أولًا ، ثم تصحبها معها فيما بعد ، ولكن الطفلة كانت تصر على البقاء معها ، وترجوها أن تدعها تبقى إلى جوارها ، وهى تعدها بألا تسبِّب لها أى إزعاج .. وفى الحقيقة كانت (نادية) سعيدة للغاية بالطفلة ، وتعاملها كما لو كانت ابنة لها ..

وفى أثناء تناول الفطور ، أخذ الأب والطفلة يثرثران ، حيث سألها الأب قائلًا :

ـ إنك ستصحبينني اليوم إلى (الإسكندرية) كما وعدتك ، ولكن بشرط إلا تصدر عنك أية شقاوة ، فلدى عمل مهم هناك ، وبعد ذلك سنذهب سويًا إلى الشاطئ ، وسأجعلك تقضين وقتًا طيبًا للغاية .

سألته الطفلة ببراءة :

ـ ألا يمكننا اصطحاب طنط (نادية) معنا إلى (الإسكندرية)؟

قال (عماد) ، وهو يلقى نظرة سريعة على (نادية) ، التى كانت تجلس فى مواجهته ، وقد بدا عليه شىء من الخجل ، لهذا المطلب المفاجئ من ابنته :

ـ كلا ياحبيبتى.. طنط (نادية) لاتستطيع أن تغادر المنزل ، وتترك جدك بمفرده ، فهو يحتاج إلى وجودها دائمًا إلى جواره .

قالت له الطفلة بلهجة حاسمة :

ـ إذن سأبقى هنا مع طنط (نادية) .

نظر (عماد) إليها بدهشة ، قائلًا :

ـ تبقين هنا ؟!.. ولكنك كنت تلحين علىَّ طوال الأسبوعين الماضيين ، لكى تسافرى معى إلى



(الإسكندرية) ، كما فعلنا فى الشهر الماضى .

قالت (ريم) :

ـ لم أعد أشعر برغبة فى السفر .. إننى أفضل البقاء هنا .

ابتسم قائلًا :

ـ لم تعودى تشعرين برغبة فى السفر ، أم أنك تفضلين البقاء فى صحبة طنط (نادية) .. إننى أرى أنك ترهقينها أكثر من اللازم .

ابتسمت (نادية) بدورها ، قائلة :

ـ إننى لاأشعر بأى إرهاق فى وجود (ريم) .. ألا يمكنك أن تتركها معى هنا فى أثناء سفرك .

قال (عماد) فى تردد :

ـ نعم .. ولكن ..

قاطعته قائلة :

ـ تأكد أنها ستكون فى رعايتى ، ويمكنكَ أن تسافر وأنت مطمئن عليها تمامًا .

(عماد) :

ـ إننى مطمئن عليها وعلى رعايتك لها بالطبع ، ولكن الطفلة أصبحت متعلقة بك بشكل غير عادى .. إنها تقريبًا تلاحقك أينما ذهبت .

قالت (نادية) وهى تمسح بيدها على شعر (ريم) :

ـ ولكننى سعيدة بهذا ، ولا أشكو منه مطلقًا .

ـ (عماد) :

ـ لاتشكين منه ، ولكننى لاأريد أن أضيف إلى أعبائك أعباء جديدة .. إننى أعرف كم هو متعب أبى ، وقد رأيت بنفسى ما تفعلينه معه خلال الأيام الماضية ، وعندما طالبتك بأن تولى ابنتى بعضاً من عنايتك واهتمامك ، لم أكن أعتقد أن الطفلة ستتعلق بك على هذا النحو .

وفجأة تعالى صوت الحاج (فهمى) ، آتيًا من الدور العلوى ، وهو ينادى (نادية) فهرولت (نادية) إليه ، فى حين نظر إليها (عماد) بإشفاق ، فهى لم تهدأ لحظة واحدة منذ الصباح الباكر ، وهى تعمل على تلبية طلبات أبيه ..

وقال لها الرجل العجوز بغلظة :

ـ أين كنت؟.. إننى أنادى عليك منذ عدة دقائق .. ألا تسمعين؟

قابلت (نادية) غلظته بهدوئها المعتاد ، قائلة :

ـ آسفة إذا كنت لم أسمعك ، ولكننى أسرعت إليك بمجرد ندائك علىَّ .

قال لها الأب ، دون أن يتراجع عن لهجته الجافة :



ـ لماذا لم تقدمى لى دواء الروماتيزم؟.. كان يجب أن أتناوله منذ نصف ساعة .

(نادية) :

ـ لقد قدمته لك فى موعده ، منذ نصف الساعة .

الحاج (فهمى) :

ـ كان هذا دواء القلب .. إننى لم أتناول دواء الروماتيزم بعد .

(نادية) :

ـ كلا .. لقد كان دواء الروماتيزم هو الذى قدمته لك فدواء القلب يؤخذ يومًا بعد يوم .

قال لها وهو مستمر فى صياحه :

ـ ولكنى متأكد أنه لم يكن دواء الروماتيزم .

أسرعت بإحضار العلبة ، قائلة :

ـ كيف؟.. لقد قدمت لك منه بنفسى .

ازداد انفعاله وهو يقول :

ـ أتتهميننى إذن بالكذب؟

(نادية) :

ـ كلا .. ولكن ربما نسيت ..

قاطعها قائلًا :

ـ نسيت .. إننى عجوز بالفعل ، ولكن ذاكرتى لم

تضعف بعد ، أو تظنينني شيخا مخرفا .

قالت (نادية) ، وقد أنهكها الحوار معه :

- كلا .. إننى لم أقصد ذلك على الإطـــلاق .. كل ما هنالك ..

عاد لمقاطعتها مرة أخرى :

- كل ما هنالك أنك فتاة وقحة ، ولاتصلحين لهذا العمل .

وفى تلك اللحظة اقتحم الابن الغرفة ، قائلًا بحدة :

- كفى .

ثم نظر إلى أبيه ، قائلًا :

- إنك تنسى أن هذه الفتاة ممرضة ، جاءت لرعايتك والعناية بك وبصحتك ، وهى تقوم بعملها على أكفأ وجه ، ولكنك تعاملها كما لو كانت خادمة أو جارية ، تستطيع أن تتحكم فيها كما يحلو لك ، وتوجه لها من السباب ما تشاء .

قابل الأب ابنه بانفعال مماثل ، قائلًا :

- كيف تجرؤ على محادثتى على هذا النحو ؟

تدخَّلت (نادية) فى الحديث بينهما ، قائلة :

- الأمر لايستحق كل هذا الانفعال .. ربما اخطأت فى أننى ..

قاطعها (عماد) قائلًا :



- إنك لم تخطئى فى شىء .. لقد استمعت إلى الحوار الذى دار بينكما ، وأرى أن أبى ما يزال مستمرًا فى تجنيه عليك .

قال الأب ، وهو مستمر فى صياحه :

- أو تسمح لنفسك بأن تنصر هذه الفتاة الوضيعة على أبيك ؟

قال (عماد) ، وقد استفزه وصف أبيه لـ(نادية) :

- إننى أقرر ما أراه وأسمعه ، فأنت تعامل ممرضتك بمنتهى القسوة ، وليس من حقك أن تسبها وتتهمها بالوضاعة ، على هذا النحو المهين .

الأب :

- إنها فتاة مهملة ، ولاتؤدى عملها على النحو المطلوب .

(عماد) :

- بل إنها أفضل فتاة جاءت لرعايتك ، وهى تتحمل منك ما يفوق الطاقة .

الأب :

- فليكن .. ولكننى لاأريدها معى هنا .. ادفع لها أجر الأيام التى قضتها هنا ، واصرفها من المنزل .

(عماد) :

ـ بل إنها ستبقى .. لقد سئمت استدعاء ممرضة كل فترة من الزمن ، لتتولى أمرك ، ورعايتك ، ثم تصرفها على هذا النحو المهين .. لاأعرف ما المطلوب منى بالضبط؟.. إننى أقوم بواجبى نحوك دون تقصير فى شىء وأوصى بإحضار أفضل الممرضات للعناية بك ، ولكنك ترفضهن الواحدة تلو الأخرى ، بعد أن تسبب لهن الكثير من المتاعب .. ما الذى فعلته هذه الفتاة ، لتطلب منى صرفها على هذا النحو ؟!.

الأب :

ـ هذا شأنى .. هذا منزلى قبل أن يكون منزلك ، ولى الحق فى أن أختار من يبقى ومن يذهب .

قال (عماد) ، وقد تصلَّبت عضلات وجهه :

ـ كلا .. هذا ليس منزلك .. هذا المنزل وبقية أموالك الأخرى كانت مثقلة بالديون ، وكان مقدرًا له أن يباع ضمن عدة أشياء تمتلكها وفاء لهذه الديون .. لعلك تذكر ذلك ، مادمت ماتزال محتفظًا بذاكرتك القوية .. وأنا .. أنا وحدى ، وبفضل مجهودى وعرقى تمكنت من الحفاظ على هذا المنزل ، وعلى هذه الثروة ، مما جعلك تسلِّم مقاليد الأمور لى ، ولكى أنمى هذه الثروة ، وأحافظ على اسم العائلة .. عائلة الحاج (فهمى) ، الذى لم تردعه حجته عن



تبديد ثروته على السهرات وموائد القمار .. الحاج (فهمى) الذى باع بعضًا من أراضيه للغير ، وفاءً لديونه وصفقاته الخاسرة ، وكاد يبدِّدها بالكامل ، لولا تدخلى وتصدىَّ لأولئك المخادعين ، وأصحاب السوء ، الذين أحاطوا بك ، وكادوا يدفعونك إلى بيع أرضك .. أرضك التى أعدتها إليك بدمى وعرقى .

قال الأب ، وقد هدأت حدة لهجته لأوَّل مرة ، وبدا عليه شىء من الانكسار :

ـ أتعايرنى يا (عماد) ؟

(عماد) :

ـ كلا .. ولكنى أذكرك فقط بأننى لن أتخلى عن واجبى فى رعايتك والعناية بك ، حتى لو رفضت أنت ذلك .. إننى لم أفعل ذلك منذ خمسة عشر عامًا ، وأنت ماتزال واقفًا على قدميك ، ولن أفعله وأنت فى هذه السن المتقدمة .

قال الأب ، وهو يبتسم بمرارة ، مرددًا :

ـ العناية بى ؟! .. إننى أذكر أيضًا مادمت قد أثرت حديث الذكريات ، أنه منذ عشر سنوات كنت تنوى الحجر علىَّ .. أليس كذلك ؟ .. أم أن ذاكرتى قد شاخت أيضًا ؟

(عماد) :

ـ لم أكن أملك سوى التهديد بذلك ، فقد أردت أن توقع

على صفقة كانت ستكلفك كل ثروتك ، وتجعلنا نعيش على الكفاف ، وقد حاولت أن أقنعك بما هو واضح فى تلك الصفقة من غش وتدليس ، ولكنك رفضت أن تستمع إلى ، مما اضطرنى إلى التهديد بالحجر ، ولكننى لم أكن أنوى تنفيذ ذلك بأى حال من الأحوال ، حتى ولو استمررت فى الاتفاق مع هؤلاء الأشخاص .

تدخَّلت (نادية) ، وقد شعرت بالأسف لاضطرارها لسماع هذا الحديث :

- أعرف أننى السبب فى إثارة هذه المشكلة ، وأنا آسفة لذلك .

ثم نظرت إلى الأب ، قائلة :

- حسن .. إذا كان المطلوب هو رحيلى فسوف أرحل .

نظر إليها (عماد) بانزعاج ، قائلًا :

- ترحلين؟!.. إننى لن أسمح بهذا .. إنك ستبقين ، وستستمرين فى أداء عملك هنا معه ، فهو بحاجة إليك .

وصاح الأب قائلًا :

- إننى لست فى حاجة إلى أحد .

صاح الابن بدوره :

- ألا تتوقف عن هذا العناد !!

قالت (نادية) متوسلة :



- أرجوك .. لا أريد أن أتسبب فى أية مشاكل أخرى .. إننى سأجهز حقيبتى ، وأغادر هذا المنزل ، لأننى لن أستطيع أن أنجح فى تمريضه والعناية بصحته ، مادام يرفض أن أكون ممرضته .. من أسس التمريض التى تعلمناها أن يستريح المريض ، ويستجيب للممرضة التى تتولى تمريضه ، وإذا لم يحدث هذا ، فلا جدوى من استمرارها فى تولّى حالته ، أى أنه لن تكون هناك جدوى من بقائى هنا .

صمت (عماد) قليلًا ، وهو ينظر إليها بحيرة وتردد ، ثم مالبث أن تحوّل إلى الأب ، قائلًا بخشونة :

- حسن .. إذا كنت لا تريد هذه الفتاة لتمريضك ، فاعلم أننى قد بذلت معك أقصى مايمكن عمله ، لكى تبقى تحت رعايتى فى هذا المنزل ، دون أن أفكر فى إرسالك إلى مصحة ، أو دار للمسنين ، لكى تتولى رعايتك صحيًا أو طبيًا ، وكنت أبغى من ذلك أن تبقى معى فى هذا المنزل ، الذى عشت معك طوال عمرى فيه ، ولكن بعد أن تذهب هذه الفتاة فسوف يتعين على أن أرسلك إلى مصحة ، أو دار للعلاج ، لكى تتولى شأنك .

نظر إليه الأب بغضب ، قائلًا باستنكار :

- ترسلنى إلى مصحة .. هل تريد أن تبعدنى عن بيتى؟

(عماد) :

ـ وماذا أفعل ؟ إنك تضطرنى إلى هذا .. فهذه هى تاسع ممرضة أحضرها لك وتتسبَّب فى إنهاء عملها ، وحالتك تحتاج إلى عناية طبية ، لا أستطيع أن أوفرها لك بمفردى ، خاصة وأن لدى الكثير من الأعباء .. إذن قل لى ماذا أفعل ؟

انفعل الأب قائلًا بحدة :

ـ لاشأن لى بما تفعله .. فأنا صاحب هذا المنزل ، ولن يجبرنى أحد على مغادرته .. كما لن يفرض علىَّ أحد شخصًا لاأريده .. لن أغادرِ هذا المنزل إلى أى مكان ، إلا جثة هامدة ، وسوف ...

وفجأة احتقن وجه الرجل ، وجحظت عيناه ، وقد توقف عن الحديث ، ومالبث أن وضع يده على قلبه وهو يلهث بشدة ، وما أن رأته (نادية) على هذه الحالة ، حتى اندفعت نحوه لتفحصه ، فى حين وقف (عماد) متسمرًا فى مكانه ، وهو ينظر إليه بجزع وخوف مرددًا :

ـ أبى .. أبى ..

وهوى قلبه بين قدميه ..

* * *



# ٥ ـ لاترحلى ..

مرَّت الدقائق طويلة ، بعد أن حقنته (نادية) بالدواء ، ثم سارعت إلى الهاتف لتتصل بالدكتور (بهاء) ، كى تشرح له الحالة ، وسألها الدكتور قائلًا :

ـ هل توقف اللهاث ، الذى كان يشعر به ، بعد الحقنة ؟

نظرت (نادية) إلى الرجل ، الذى أغمض عينيه وقد بدا فى شبه غيبوبة ، قائلة :

ـ نعم يادكتور .

الدكتور (بهاء) :

ـ حسن .. بعد ساعتين أعطيه حقنة أخرى ، وسأذكر لك اسم دواء يتعين عليك أن تقدمى له منه كل ست ساعات .

أنصتت إليه (نادية) باهتمام ، وهى تسجل اسم الدواء فى ورقة صغيرة أمامها ، فى حين كان (عماد) جالسًا إلى جوار أبيه ، وهو ينقل بصره بينه وبين (نادية) وعيناه تنطقان بالخوف والقلق ، على سلامة الأب ، وأسرعت (نادية) بمجرد أن وضعت سماعة الهاتف ، لتقدم الورقة التى دونت فيها اسم الدواء إلى (عماد) قائلة :

- لابد من إحضار هذا الدواء فورًا .

نهض (عماد) ، قائلًا ، وهو يتناول منها الورقة :

- سأحضره بنفسى .. أرجوك أخبرينى بالحقيقة .. هل حالته خطيرة؟

قالت (نادية) بشىء من التردّد :

- لاأعلم .. الدكتور (بهاء) فى الطريق إلى هنا ، لفحص حالته بنفسه .

قال (عماد) ، وهو يضغط بأصابعه على ذراعيها فى انفعال :

- أريد أن أعرف ماذا قال لك الدكتور (بهاء)؟

قالت ، وهى تحرر ذراعيها من أصابعه ، التى تركت آثارها فيهما :

- لم يقل شيئا ، ولكننى أعتقد أنها أزمة قلبية .. أرجوك لاتضيّع الوقت ، وأسرع بإحضار الدواء المطلوب .

قال (عماد) ، وقد خرجت الكلمات من فمه مرتعشة :

- حسن .. حسن .. سأحضره بأسرع مايمكننى .. آسف يبدو أننى قد آلمتك ، ولكن ..

ولم يجد مايقوله ، وقد سيطرت عليه مشاعره المضطربة ، وخوفه على أبيه ، فاندفع ليفتح باب الغرفة ، حيث وجد ابنته تندفع إلى الداخل بدورها ، قائلة :



- أبى .. هل سيموت جدى؟

قال وهو يبعدها جانبًا :

- اذهبى الآن عند (فوزية) .

ولكن الطفلة رفضت أن تبارح مكانها ، قائلة :

- كلا .. سأبقى مع جدى .

ونادتها (نادية) ، قائلة :

- تعالى يا حبيبتى .. سنبقى معًا إلى جوار جدك ، حتى يستيقظ من نومه .

اندفعت الطفلة نحوها ، فى حين وقف (عماد) أمام الباب قليلًا مترددًا ، وقد بدا أنه يعارض فى وجود الطفلة مع أبيه ، وسط هذه الظروف العصيبة ، ولكنه مالبث أن اندفع يغادر المكان ، وقد نبهته نظرات (نادية) إلى ضرورة الإسراع بإحضار الدواء ، وأحاطت الطفلة خصر (نادية) بذراعيها الصغيرتين ، وهى تنظر إلى جدها بخوف ، قائلة :

- هل سيعيش جدى؟

احتضنتها (نادية) قائلة :

- إن شاء الله ياحبيبتى .. كل ما هناك أن جدك متعب قليلًا ، وبحاجة لبعض الراحة ، لذا يتعين علينا أن نتركه نائمًا بعض الوقت ، وألا نعمل على إزعاجه ، لكى يسترد صحته .

قالت لها الطفلة ، وهى تزيد من ضغط ذراعيها على خصرها ، وكأنها تخشى أن تفارقها :

- إننى أحب جدى كثيرًا ياطنط (نادية) ، ولا أريد أن يموت .

ابتسمت لها (نادية) ، وهى تمسح بيديها على شعرها ، قائلة :

- اطمئنى ياحبيبتى.. سيعيش جدك بإذن الله ، وسأعمل مابوسعى لكى يسترد صحته .

نظرت إليها (ريم) ببراءة ، قائلة :

- جدى طيب للغاية على عكس مايبدو عليه ، هو فقط كثير الصياح ، لاتدعى هذا يغضبك منه .

(نادية) :

- ولكننى لست غاضبة منه .

(ريم) :

- أنا أعرف أنه تحدث معك بصوت عال ، وقال لك أشياء لايحق قولها ، لكنه لايقصد ذلك .. هل أخبرك بسر ؟

(نادية) :

- وماهو ؟

قالت لها هامسة :

- إنه يلعب معى أحيانًا ، ولكنه طلب منى الاحتفاظ بهذا



الأمر سرًا ، وألا أخبر به أبى أبدا .

اتسعت ابتسامة (نادية) ، وهى تقول :

- لماذا ؟

قالت (ريم) ، وقد زادت من انخفاض صوتها ، وكأنها تتحدث عن سر خطير :

- لأنه لايريد أن يعرف أبى أنه يشاركنى اللعب ، حتى لايقول عنه إنه يتصرف كالأطفال .

أطلقت (نادية) ضحكة قصيرة ، فى حين قالت لها الطفلة بجدية :

- إنك لن تتركيننا .. أليس كذلك؟ إننى أحب جدى ، وأحبك أنت أيضا ، ولا أطيق فراق كليكما

وقبل أن تجيب (نادية) بكلمة ، سمعت همهمة قصيرة صادرة من العجوز ، فاسرعت إليه ، وعملت على قياس نبضه وسرعة دقات قلبه ، وأخذت تستخدم يديها فى حنكة وبراعة ، لتدليك قلبه المريض ، وماأن سمعت صوت سيارة (عماد) قادمة بأسفل ، حتى اندفعت لتلاقيه فوق درجات السلم ، وهى تسأله بلهفة وقلق :

- هل أحضرت الدواء؟

مد لها يده به ، قائلًا :

- هاهوذا .

اختطفته (نادية) منه سريعًا ، ثم أسرعت تقفز درجات السلم ، صاعدة مرة أخرى ، وهى تتصبّب عرقًا ، لتناول العجوز ملعقة منه ، وعادت مرة أخرى لتدليك القلب ، وهى تتابع دقاته ، وتقيس النبض من آن لآخر .. وبعد ساعة كاملة من الجهد المضنى ، لم تهدأ (نادية) خلالها دقيقة واحدة ، فتح الرجل عينيه ، قائلًا بصعوبة :

ـ إننى ظمآن .. أريد أن أشرب . وما أن سمعته (نادية) يقول ذلك ، حتى هتفت قائلة :

ـ الحمد لله .. لقد بدأ قلبه ينتظم .

شد الدكتور (بهاء) على يد (نادية) قائلًا :

ـ لقد قمت بعمل عظيم يا (نادية) .. فالله وحده يعلم مصير هذا الرجل ، لولا تدخلك السريع ، وعنايتك الفائقة به على هذا النحو .

والتفت إلى (عماد) ، قائلًا :

ـ لا أخفى عليك ، لقد كانت حالته خطيرة للغاية ، حتى أننى أحضرت معى سيارة الإسعاف الخاصة بالمستشفى ، لسرعة نقله إلى غرفة العناية المركزة ، وكنت أدعو الله طوال الطريق ، أن أصل إليه قبل فوات الأوان ، ولكن بفضل الله وسرعة تدخل ، (نادية) ، وحسن اتباعها للتعليمات التى أصدرتها لها ، أمكن إنقاذه من تلك الأزمة .



اقترب من (عماد) ليهمس قائلًا ، وهو يراقب الطفلة الصغيرة ، التى كانت واقفة فى أحد أركان الحجرة :

ـ كن حريصًا يا (عماد) ، أبوك بحاجة الى البعد عن الانفعالات الشديدة .. سنه وحالته الصحية لم تعد تتحمل أية توترات أو انفعالات عصبية .

ونظر إلى (نادية) قائلًا :

ـ وبالطبع فأنت أول من يجب عليه مراعـاة ذلك يا (نادية) .. دورك هنا يتطلب إلى جانب الحرص على انتظام مواعيد الدواء ودقتها ، التخفيف من حدة هذه الانفعالات والتوترات .

قالت (نادية) بهدوء :

ـ سأعود معك إلى المستشفى يا دكتور .

نظر إليها (بهاء) بدهشة ، وقال :

ـ لماذا ؟.. أعنى لماذا بمثل هذه السرعة؟ مكانك محفوظ بالطبع كما أخبرتك ، ولكنك هنا منذ أسبوع واحد ، وهذا الرجل بحاجة حقيقية إلى عنايتك .

(نادية) :

ـ أعتقد أن وجودى فى هذا المنزل سيزيد من حدة توتره وانفعاله ، فهو لا يريدنى هنا ، ومن الأفضل له أن أغادر المكان ، وقد يكون وجود ممرضة أخرى أفضل بالنسبة له .

ولم يُعلق الدكتور (بهاء) على قولها ، ولكنه نظر إلى (عماد) ، فوجده يخفض وجهه أرضًا ، دون أن يعلق بكلمة واحدة ، فلم يجد بدًا من أن يقول لها :

ـ حسن .. أعدى حقيبتك ، واستعدى للعودة معى .

سارعت (نادية) بصعود السلم لتجهيز حقيبتها ، ومالبثت أن لحقت بها الطفلة (ريم) ، بعد أن استمعت لهذا الحديث ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، ووقفت إلى جوار الباب ، وهى تنظر إليها بعينيها الدامعتين نظرة عتاب ، قائلة :

ـ لماذا تريدين أن تتركينى ؟ ألم تعدينى بالبقاء ؟

توقفت (نادية) عن إكمال ترتيب حقيبتها ، لتقترب منها قائلة :

ـ سامحينى يا (ريم) .. ليس الأمر بيدى .

قالت لها الطفلة ، وهى تبتعد عنها :

ـ بل أنت التى ترغبين فى ذلك .. لقد كنت أظن أنك تحبيننى .

احتضنتها (نادية) قائلة :

ـ بل إننى أحبك كثيرًا جدًا ، ولكن هذا ضرورى لصالح جدك .. ألا تحبينه ؟ .. ألم تخبرينى أنك ترغبين فى أن يستعيد صحته ؟.. بقائى يمكن أن يسبب له الكثير من المتاعب ، لأنه يضيق بوجودى .



قالت الطفلة ، وهى تمسح العبرات التى سالت فوق وجنتيها :

ـ لا أفهم ما الضرر الذى يمكن أن يسببه بقاؤك لجدى ؟ لقد رأيتك تنقذين حياته منذ قليل ، فكيف تقولين إن وجودك سيسبب له التعب والمرض ؟! إنك تبحثين عن حجة لتبتعدى عنا .. إننى أحب جدى ، وأحبك أنت أيضا كثيرًا ، ولا أريد منك أن ترحلى عنا .

وفى تلك اللحظة دخل (عماد) الحجرة ، ونادى ابنته ، قائلًا :

ـ تعالى يا (ريم) .

ثم وضع يديه على كتفى الطفلة الصغيرة ، قائلًا :

ـ اسمعى كلام طنط (نادية) ، ولا تضايقيها أكثر من ذلك .. مادامت تقول لك إن رحيلها ضرورى ، فيجب أن تعرفى أن ذلك فى صالح جدك وصالحها .. هيا استعدى لتقبليها وتودعيها .

صاحت فيه الطفلة :

ـ لن أقبل أحدًا . ولن أودع أحدًا .. إنها تريد أن تفارقنى كما فعلت أمى من قبل .. إنها لاتحبنى .. لاتحبنى .. واندفعت خارجة من الحجرة ، والأب ينظر إليها بإشفاق ، ثم التفت إلى (نادية) قائلًا :

- أرجو أن تسامحيها ، فلها بعض العذر .. لقد وجدت فيك بعض التعويض عن حرمانها من أمها التى فقدتها ، لذا فهى لا تطيق فكرة ابتعادك عنها .. ربما كان خطأ منى أن طالبتك بإبداء شىء من الاهتمام والعطف المبالغ فيه نحوها ؛ فقد جعلها هذا تزداد تعلقًا بك وتمسكًا بوجودك ، ولم نعمل حسابًا للحظة التى ستغادرين فيها المنزل .. وهى لحظة كانت قادمة لامحالة ، إن آجلا أم عاجلا ، ولكن الحمد لله .. هذا لم يستغرق وقتًا طويلًا ، فربما جعلها هذا تزداد تعلقًا بك ، وزاد من صعوبة الموقف الذى نحن بصدده الآن .. لن يمرّ وقت طويل ، حتى تكون قد نسيتك ، وربما عادت إلى حالتها الطبيعية .

قالت (نادية) ، وهى تغالب دموعها :

- تأكد أن الأمر أكثر مشقة بالنسبة لى ، وأننى سأواجه صعوبة أكثر فى نسيانها ؛ فأنا أيضًا تعلقت بابنتك كثيرًا ، ولم يكن اهتمامى ناجمًا عن طلبك لى بإبداء الاهتمام والعناية بها ، ولكننى أحببتها بالفعل ، وصرت أنظر إليها كما لو كانت ابنتى .

قال لها (عماد) بتأثر :

- لو كان الأمر بيدى لحاولت أن أثنيك عن هذا الرحيل ، فأنا أقدرك كثيرًا .. ربما أنك لم تقضى معنا وقتًا طويلًا فى



هذا المنزل ، ولكنك أضفت إليه لمسة لم تكن موجودة من قبل ، ولا أعرف كيف أصفها .. ناهيك عن إخلاصك الحقيقى فى رعاية والدى .. ولكننى مضطر للموافقة على مغادرتك لنا ، بل يؤسفنى أن أقول إنه لو لم ترفضى أنت الرحيل لطلبته منك ، فبعد ما سمعته من الدكتور (بهاء) ، من ضرورة الحرص على عدم إثارة أبى ، وما أحسسته فى تلك اللحظات التى تعرض فيها لأزمته القلبية ، التى كادت تقترب به من الموت ، من خوف وشعور بالندم ، لأننى تسببت فى انفعاله على هذا النحو ، الذى كاد يودى به ، أجد نفسى مضطرًا إلى تلبية مطلبه بإبعادك عن هنا ، وهذا أقل شىء أفعله ، بعد أن كدت أتسبب فى موته ، على الرغم من قناعتى بأنه مخطئ للغاية فى مطلبه هذا .

(نادية) :

- إننى أقدر لك اهتمامك بوالدك على هذا النحو ، وأرجو أن تحرص دائمًا على العناية به ، دون الاعتماد كلية على أية ممرضة أخرى ستأتى مكانى ، فهو والدك قبل كل شىء .

فى تلك اللحظة سمعا صرير عجلات المقعد المتحرك ، وهو يقترب منهما ، وما لبثا أن رأيا الأب جالسًا فوق مقعده أمام باب الغرفة ، وهتف (عماد) :

ـ أبى .. ما الذى جعلك تغادر الفراش؟

قال الأب بخشونة مصطنعة هذه المرة :

ـ لاشأن لك بذلك .

ثم أضاف وهو يحدج (نادية) بنظرة فاحصة :

ـ هيا .. تفضل بمغادرة الحجرة ، فأنا أريد أن أتحدث مع هذه الفتاة .

قال (عماد) مترددًا :

ـ أبى .. أرجوك لاداعى لهذه الخشونة ، فهى تنوى الرحيل وفقًا لما طلبت ، وقد أبدت بك اهتمامًا يفوق الوصف فى أثناء أزمتك ..

قاطعه الأب بنفس النبرة الخشنة :

ـ قلت لك : غادر الحجرة .

ظل (عماد) على تردده ، فى حين أشارت له (نادية) بطاعة أبيه ، ودار الأب بمقعده حولها ، ثم مالبث أن نهض من فوقه ليواجهها ..

وأحست (نادية) بالقلق ، فاندفعت نحوه لتعيده إلى المقعد ، ولكنه منعها بإشارة من يده ، قائلًا :

ـ أستطيع الوقوف على قدمىَّ ، والتحرك بضع خطوات ، من آن إلى آخر ، ولعلك تعرفين ذلك .

هزت رأسها قائلة :



ـ نعم .. نعم ..

قال الحاج (فهمى) :

ـ حسن .. فلا داعى لكل هذا القلق إذن .

(نادية) :

ـ ولكنك تعرضت لأزمة منذ قليل ، وأى إجهاد يمكن أن يُسبِّب لك الضرر .

الحاج (فهمى) :

ـ وقوفى على قدمىَّ لن يسبِّب لى أى إجهاد .. أخبرينى .. إنك تزمعين الرحيل .. أليس كذلك؟

قالت وهى تخفض رأسها :

ـ نعم .. سأرحل الآن مع الدكتور (بهاء) .

أخذ الرجل يعبث بخصلات شعره البيضاء ، وقد بدا أنه يبذل جهدًا ليغالب كبرياءه ، قبل أن ينطق قائلًا :

ـ وماذا لو طلبت منك البقاء؟

نظرت إليه (نادية) بدهشة ، قائلة :

ـ ولكنك كنت تصرّ ..

قاطعها قائلًا :

ـ كنت أصر على رحيلك ، والآن أصر على بقائك .. ما قولك فى هذا ..

ولم تدر ماذا تقول .

* * *

# ٦ـ الحلم ..

تأملته (نادية) مليًا ، قبل أن تقول :

ـ وما الذى دعاك إلى تغيير موقفك على هذا النحو ؟. إذا كان هذا بسبب عنايتى بك فى أثناء أزمتك الأخيرة ، فتأكد أننى لم أؤد سوى واجبى ، وأية ممرضة أخرى فى مكانى لم تكن لتفعل أقل مما فعلته .

وتجاهل الرجل ملاحظتها قائلًا :

ـ الجميع يحبونك هنا ، ويرونك فتاة طيبة .

(نادية) :

ـ ولكن أنت تبغضنى ، وترى أننى فتاة وقحة ، كما قلت من قبل .

نظر إليها وهو يقول بصعوبة :

ـ إننى رجل عجوز وعصبى ، ويمكنك أن تتحملينى قليلًا .. أليس كذلك ؟

(نادية) :

ـ نعم يمكننى ذلك بالفعل ، ولكنى لا أريد أن أسبب لك أية متاعب .

الحاج (فهمى) :



ـ على العكس يابنيتى .. أنا الذى أتعبتك معى ، ولولا تدخلك لكنت الآن فى عداد الأموات .

قالت بدهشة :

ـ ابنتك .. إنها المرة الأولى التى أسمع فيها منك هذه الكلمة .

تهالك الرجل فوق مقعده ، قائلًا :

ـ ربما يدهشك لو قلت لك إننى كنت أتمنى منذ فترة طويلة أن أكون فى عداد الأموات بالفعل ، فما فائدة رجل عجوز ومريض مثلى .. لقد كنت فيما مضى رجلًا قويًا ، يعمل له الجميع ألف حساب ، قبل أن أبتلى بداء القمار ، وأسلم قيادى للنصابين والأفاقين ، حتى كدت أخسر كل شىء ، لولا مساندة (عماد) لى .. لقد تحمل هذا الفتى المسئولية مبكرًا .. لم يعش شبابه كما يجب ، ولم يحظ بالتدليل الذى يحظى به أخوه الآن ، فتولى مسئولية الحفاظ على المال والأرض واسم العائلة .. كافح برجولة وإصرار ، ليحافظ على مابددته برعونتى وطيشى ، وكان يرهق نفسه بإدارة الأموال ورعايتها ، أكثر من عشرين ساعة فى اليوم .. هذه حقيقة لايمكن إنكارها ..

ووقفت أنا عاجزًا ، دون أن أقوى حتى على مساندته ، لأن المرض كان قد بدأ يداهمنى ، وكان حظه سيئًا ،

فعندما بدأت الأمور تتصلح ، وأردت أن يحصل على نصيبه من الحياة ، فاخترت له زوجة جميلة ، من أسرة طيبة ، لم يقدر لها أن تحيا معه سوى سنوات قليلة ، فارقت بعدها الحياة ، تاركة له مسئولية طفلة صغيرة ، عرفت طعم اليتم مبكرًا .

قالت (نادية) متأثرة :

ـ مادمت مدركًا لذلك ، فلماذا تقسو معه فى المعاملة هكذا ؟

أجابها قائلًا :

ـ لأنه يذكرنى بضعفى وخطاياى ، كلما نظرت إليه ، ونظرت إلى نفسى ، أدرك أن الرجل القوى الذى كنته قد ولى وانتهى ، كلما نظرت إلى ابنى أشعر كما لو كان هو الأب وأنا الابن الضعيف الطائش ، الذى كاد يبدد ثروته وأرضه .. إنه يذكرنى بذلك .. كنت أتمنى أن أكون صحيحًا معافى وأن يرجع الزمن بى عدة سنوات فقط إلى الوراء ، لكى أُصحح الكثير من الأخطاء التى ارتكبتها .. على الأقل لكى أثبت لنفسى أننى مازلت قادرًا على الإصلاح وتولى زمام الأمور ، ولكننى أجد نفسى هكذا كما ترينني أمامك ، عجوزًا مريضًا ، لا فائدة تُرجى منه ؛ لذا كنت أتمنى الموت وأتعجله ، فالموت بالنسبة لى أهون من العجز



والحياة مع ذكرى آثام الماضى .. هذا ماكان يدفعنى دائمًا إلى التمرد على العلاج ، وعلى رعاية الممرضات لى ، فوجودهن أيضًا يذكرنى بعجزى وضعفى ، ولكن عندما واجهت هذه الأزمة الأخيرة ، ووجدت نفسى أقترب من حافة الموت ، أحسست أننى مازلت متشبثًا بالحياة .. حتى الموت أصبحت عاجزًا عن مواجهته .

ابتسمت له (نادية) قائلة :

ـ علينا أن نتشبث دائمًا بالحياة ، حتى يحين أجلنا المحتوم .

نظر إليها ، قائلًا :

ـ أنت أيضًا مختلفة كثيرًا عن الأخريات .. لقد تحملت منى أكثر مما تحملنه .

(نادية) :

ـ والآن ألا ترى أنك قد تحدثت بما فيه الكفاية .. عليك أن تعود إلى غرفتك ، وتحصل على قسط واف من النوم والراحة .

سألها قائلًا :

ـ ولكنك لم تجيبى على سؤالى .. هل ستبقين؟..

قالت وهى تبتسم :

ـ إذا كنت ترغب حقًّا فى بقائى؟

هز رأسه قائلًا :

ـ نعم .. وأعدك أننى سأحاول أن أكون مختلفًا فى معاملتى معك ، فقد آن الأوان لكى يغير المرء من طباعه السيئة .

قالت (نادية) :

ـ حسن .. أعتقد أنه يتعين على الآن أن أخبر الدكتور (بهاء) بعدولى عن السفر معه .

ابتسم قائلًا للمرة الأولى :

ـ لست بحاجة إلى ذلك .. لقد أخبرته أنك باقية ، وسافر بمفرده بالفعل .

قالت ضاحكة :

ـ وكيف خمنت أننى سأوافق على البقاء؟

استدار بمقعده ، عائدًا إلى غرفته ، وهو يقول :

ـ كنت أعرف أنك ستوافقين ؛ فلك قلب طيب ، ثم أظن أنه مايزال لى بعض التأثير على الفتيات الصغيرات مثلك فى سنوات عمرى المتقدمة .

واستقبل الجميع خبر بقاء (نادية) بفرحة غامرة .. (عماد) ، و(ريم) .

وحتى (فوزية) .

★ ★ ★



دفعت (نادية) المقعد المتحرك ، الذى يجلس عليه الرجل العجوز ، قائلة :

ـ مارأيك لو صحبتك الآن إلى الحديقة .. السماء صافية والجو بديع؟

ولكنه قال :

ـ أفضل أن أرى الحديقة من الشرفة ..

صحبته إلى الشرفة ، حيث تطلع إلى الخضرة الماثلة أمامه ، قائلًا :

ـ معك حق .. السماء صافية اليوم ، والجو يبدو مشرقًا للغاية .

ثم التفت نحوها مستطردًا :

ـ لماذا لاتستغلين هذا الجو البديع فى التنزه قليلًا؟

وعلى الرغم من أن (نادية) كانت تصبو إلى ذلك ، بعد ثلاثة أسابيع لم تغادر المنزل خلالها مرة واحدة ، إلا أنها قالت :

ـ لا أعتقد أننى أميل إلى ذلك .

قال العجوز محتجًا :

ـ لاتميلين إلى ذلك ، أم أنك محرجة من تركى بمفردى .. صحتى كما ترين على مايرام الآن ، ثم إننى أفضل الانفراد بنفسى بعض الوقت ، مع هذا المشهد الخلاب .

وفى تلك اللحظة حضر (عماد) ، قائلًا لأبيه :

ـ صباح الخير يا أبى .. سأذهب للمرور على الأرض وحديقة الفواكه ، وسأصحب معى (ريم) .. ألا تريد شيئًا ؟

قال الأب بتجهم مصطنع :

ـ نعم .. أريد أن أقول لك .. إنك شخص قليل الذوق .

نظر إليه (عماد) بدهشة ، قائلًا :

ـ أنا .. لماذا ؟ ما الذى فعلته ؟

قال العجوز :

ـ انظر إلى هذه الفتاة .. كم بقى لها معنا هنا ؟

(عماد) :

ـ حوالى ثلاثة أسابيع أو أكثر .

الأب :

ـ ثلاثة أسبيع أو أكثر ، ومع ذلك لم تخرج من هذا المنزل لنزهة واحدة .. الريف هنا ساحر ، ولدينا أراضينا وحدائقنا ، ومع ذلك لم تفكر مرة واحدة فى أن تصحبها للتمتع بهذا السحر والتنزه معك عبر هذه الأراضى والحدائق .. ألا ترى أننا نظلمها بذلك ؟

قال (عماد) متحرجًا :

ـ فى الحقيقة .. كنت أود ذلك ، ولكنى أخشى أن تكون بحاجة إليها .



قال الأب مستمرًا فى احتجاجه :

ـ وما الذى يدعونى إلى الحاجة إليها طوال الوقت هكذا ؟.. أتظن أنك أحضرت مربية لطفل رضيع ؟! عليها فقط أن ترعى مواعيد الدواء والحقن ، وأن تطمئن على أن أنفاسى مازالت منتظمة ، ولم تتوقف نبضات قلبى بعد ، فى بعض الفترات ، فى أثناء الليل فقط ، أما ما عدا ذلك فلست بحاجة إليها ، خاصة وأن صحتى الآن على خير مايرام ، ولا داعى لأن تظل كاتمة على أنفاسى هكذا .

قالت (نادية) :

ـ ولكن ..

قاطعها قائلًا :

ـ ولاكلمة .. لكل منا الحق فى لحظات ينفرد فيها بنفسه .. هيا ارتدى ثوبًا جديدًا ، وصاحبى هذا الولد فى أثناء مروره على الأرض وحدائق الفاكهة .. ستعجبك أرضنا كثيرًا ..

وقفت متردّدة بعض الوقت ، فى حين ظل (عماد) واقفًا فى مكانه لا ينطق بكلمة ، فصاح الأب فى غضب مصطنع :

ـ أما زلت واقفة .. إننى لا أحب أن أكرر ما أقوله مرتين .

ثم التفت إلى ابنه ، قائلًا :

- وأنت لماذا لاتقول شيئًا ؟.. أم أن لديك اعتراضًا ؟

(عماد) :

- أنا ؟! أبدًا .

نظر (عماد) إلى (نادية) ، قائلًا :

- يمكنك أن تبدلى ثيابك ، ريثما أعد (الكارتة)(*) .

لم تجد (نادية) بدًا من الاستجابة ، فصعدت إلى غرفتها لتبديل ثيابها ، فى حين ذهب (عماد) لإحضار ابنته ، وتجهيز العربة ، وتابعها الأب بنظراته ، وقد خلع قناع التجهم عن وجهه ، لتظلله ابتسامة رضا وعطف أبوى ، تجاه الفتاة ..

* * *

شد (عماد) اللجام ، لينطلق الجوادان بالعربة ، التى أخذت تتأرجح فوق الأرض الترابية غير الممهدة ، حتى استقرت فوق الطريق الأسفلتى ، فانتظمت حركتها ، وكان (عماد) جالسًا فوق المقعد الأمامى ، فى حين جلست (نادية) مع (ريم) فى المقعد الخلفى ، وفجأة قالت لها الطفلة :

---

(*) عربة صغيرة يجرها زوج من الجياد ، ومزودة بعجلات ، ويطلق عليها أيضا فى بعض المدن لفظ الحنطور .



- لماذا لاتجربين الجلوس فى المقعد الأمامى ؟.. إنه يجعل السير وسط هذه الأراضى الزراعية أكثر متعة ؟

وقبل أن تجد (نادية) جوابًا ، كانت الطفلة قد جلست فى المقعد الأمامى إلى جوار أبيها ، وقال (عماد) ، دون أن يلتفت إليها :

- ماتقوله (ريم) صحيح .. هل تحبين أن تجربى قيادة الجياد بنفسك ؟

شهقت (نادية) للفكرة ، قائلة وكأنها تستنكر ذلك :

- أنا .. لاأظن أنه يمكننى أن أفعل ذلك .

التفت إليها (عماد) ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الساحرة ، قائلًا :

- يمكنك أن تجربى .

قالت (نادية) ، وهى تنهض لتجلس إلى جوار (ريم) ، فى المقعد الأمامى :

- لاأعتقد أنه يمكننى ذلك ، ولكننى سأجلس فى المقعد الأمامى ، بناءً على نصيحة (ريم) .

وتأملته بطرف عينها ، وهو يقود الجياد ، وقد عاودها ذلك الإحساس القوى بجاذبيته وتأثيرها ، وشعرت أنها تزداد إعجابًا به ، فى هذه اللحظة بالذات ، خاصة وهى تراقب طريقته فى قيادة العربة ، وسيطرته على الجياد ،

وذلك الاعتداد الطبيعي بالنفس ، الذى يبدو عليه ، ولاحظت لأول مرة أن أكتافه عريضة وأن لديه ساعدين قويين ، تبرز منهما عروق نافرة ، ربما بحكم اعتياده على مشاركة الآخرين فى فلاحة الأرض أحيانا ، وجمع المحاصيل ، وكل تلك الأعمال الشاقة الأخرى ، التى كان يشارك فيها بيديه ، كما سمعت خلال الأيام الماضية ..

وبدا لها وهو يقود تلك الجياد الجامحة ، فوق الطريق الأسفلتى ، كما لو كان قائدًا عسكريًا ، يقود عربة حربية ، فى طريقه إلى الميدان ..

وفجأة قطع عليها تأملاتها تسلل (ريم) من بينهما ، لتعود إلى المقعد الخلفى ، لتجد نفسها بغتة وقد أصبحت إلى جواره ، دون أن يفصل بينهما سوى بضعة سنتيمترات قليلة ، فهتفت وهى تشعر بالحرج :

ـ لماذا عدت إلى الخلف ؟.. ألم تقولى إنك تحبين الجلوس فى المقعد الأمامى ؟

قالت لها الطفلة ضاحكة وهى تضع قبضتيها أسفل ذقنها :

ـ إننى أحب أن أراكما متجاورين على هذا النحو أنت وأبى ؟

وازداد حرج (نادية) ، وقد أحست بتورد وجنتيها ، فى



حين رمقها (عماد) بنظرة جانبية ، وقد أحس بالأثر الذى تركه تعليق ابنته عليها ، وقال مبتسمًا :

ـ هل يحرجك جلوسك إلى جوارى ؟

قالت بخجل :

ـ كلا .

(عماد) :

ـ أرجو ألا تكونى قد غضبت من الأسلوب ، الذى حدثك به والدى اليوم .

(نادية) :

ـ لاأعتقد أن والدك كان يقصد الإساءة إلىَّ ، بأى حال من الأحوال .. على العكس .. لقد كان يريد أن يوفر لى نزهة لطيفة ، ولكن له أسلوبه فى التعبير عن ذلك .

(عماد) :

ـ أعتقد أنكما قد بدأتما تتفاهمان أخيرًا .

ضحكت قائلة :

ـ بل أكثر من ذلك .. لقد أصبحنا صديقين .

(عماد) :

ـ فى الحقيقة ، لاأدرى كيف تمكّنت أخيرًا من ترويض أبى على هذا النحو .

(نادية) :

ـ أبوك رجل طيب فى أعماقه ، ولكنه بحاجة لمن يفهمه ، و ..

(عماد) :

ـ لقد عجزت أنا نفسى ، على الرغم من أننى ابنه .. بل أكثر أبنائه قربًا منه عن فهمه ، أحيانًا أرى فيه هذه الطيبة التى تتحدثين عنها ، وأحيانًا أخرى أراه أمامى ذلك الرجل القوى الصلب ، الذى كنا نهابه دائمًا ونحن أطفال صغار ، ومازلنا نشعر بقوته أحيانًا ، ونرهبها حتى وهو فى هذه السن المتقدمة ومع المرض الذى أقعده .. وأحيانًا أخرى أراه ذلك الرجل المتهوّر ، الذى أسلم نفسه لداء القمار ، وترك أصدقاء السوء يخدعونه ويغرّرون به .. إنه ما يزال بالنسبة لى ، على الرغم من اقترابه من الثمانين ، لغزًا أجهله .

(نادية) :

ـ أبوك بحاجة لمن يفتح له قلبه ، ويحنو عليه ، ويغفر له خطايا الماضى وهفواته ..

(عماد) :

ـ لا أعتقد أنه هناك من هو أكثر حنوًا عليه منى ، فأنا لم أقصِّر فى حقه أبدًا ، منذ تقدّمت به السن ، وداهمه المرض .. لقد ترك لى أخواى هذه المسئولية ، وفرَّا



لتحقيق أحلامهما ورغباتهما فى المدينة ، وتحملتها عن طيب خاطر .

(نادية) :

ـ ولكنك لا تفتأ تذكره من آن لآخر بعبء هذه المسئولية ، كما لو كان الأمر مجرد واجب يجب أن يؤدى ، وليس ناجمًا عن عاطفة حقيقية .

نظر إليها (عماد) بدهشة ، كما لو كان قد أزعجه هذا القول ، قائلًا :

ـ أنا ؟!

قالت (نادية) ، وقد أدهشتها أيضًا جرأتها فى الحديث معه :

ـ نعم .. كما أنك تذكره أيضًا بأخطائه التى ارتكبها فى الماضى ، وليس هناك ما هو أقسى على الأب من أن يجد نفسه يتلقى التأنيب على يد ابنه ، كما لو كانت الأيام قد بدلت الأدوار بينهما .

قال (عماد) بلهجة تهكمية :

ـ أأنت ممرضة أم محللة نفسية ؟

قالت ، وقد آلمتها لهجته التهكمية هذه :

ـ عملى كممرضة لا يقتصر على تقديم الدواء ومراقبة حالة المريض ، من الناحية الصحية فقط ، بل يجب أيضًا

مراعاة حالته النفسية ، لأن الحالة النفسية غالبا مايكون لها الأثر الفعال على صحة المريض .. هذه بعض الدروس التى تلقيتها فى مدرسة التمريض .

توقف (عماد) عن السير بالجياد ، قائلًا لها :

ـ آسف .. يبدو أننى قد آلمتك بتعليقى هذا ، دون أن أدرى .

ابتسمت له بافتعال ، قائلة :

ـ أبدًا .. ولكن كان يتعين علىَّ أن أخبرك بهذا الأمر ، مادمت حريصًا على صحة والدك .. إنه بحاجة إلى المزيد من الفهم والحنان .

ونظر إليها مليًا بطريقة أربكتها ، ثم قال بعد برهة من الصمت :

ـ لاأعتقد أنه يمكن لشخص أن يفتقد الحب والحنان ، طالما كانت إلى جواره فتاة مثلك .

زاد ارتباكها ، لدى سماعها هذه العبارة التى باغتتها ، وأحست لها بأثر من السعادة فى أعماقها ، ومالبثت أن قالت وهى تتجنب النظر فى وجهه مباشرة :

ـ ألن تقود العربة؟

عاد يشد اللجام من جديد ، وقد بدا كما لو كان قد انتبه لنفسه ، قائلا :



ـ نعم .. نعم .

سألته (نادية) :

ـ أما زالت المسافة بعيدة .

(عماد) :

ـ كلا لقد اقتربنا .

تذكَّرت فجأة الطفلة ، فالتفتت خلفها ، قائلة بلهفة :

ـ (ريم) .

ولكنها وجدتها نائمة ، وقد راحت فى سبات عميق . فتأملتها بإعجاب ، وقد بدت أمامها كما لو كانت ملاكًا صغيرًا ، وهمست قائلة :

ـ أتنام فى هذه الساعة المبكِّرة من الصباح .

قال (عماد) مبتسمًا :

ـ إنه تأثير جو الريف، فالجو هنا يبعث على الهدوء والسكينة.

ونظر إلى عينيها مباشرة ، كما لو كان يقصد أن يصل المعنى الذى يريد أن يقوله إلى نفسها مباشرة ، وهو يستطرد قائلًا :

ـ ويُحرِّك العواطف والمشاعر أيضًا .

خفضت (نادية) بصرها ، وهى تنظر إلى الطريق أمامها ، وأرادت أن تُغيِّر مجرى الحديث ، حتى تتخلص من خجلها ، فقالت له :

- هل تعرف أنك أقرب أبناء أبيك إلى قلبه ؟ إنه يحبك للغاية على الرغم مما يبدو بينكما من خلاف ظاهرى .

عاد ينظر إليها قائلًا :

- هل أخبرك بهذا ؟

(نادية) :

- لم أكن بحاجة إلى أن يخبرنى ، ولكننى علمت منه ذلك بالفعل ، إنه شأن الكثير من الآباء ، يحاول أن يخفى عاطفته .

(عماد) :

- أنا أيضا أحبه كثيرا ، برغم خلافى الكثير معه ، وهذا مبعث اهتمامى بوجوده معى ، وقربه منى ، وليس الشعور بالواجب والمسئولية كما قلت من قبل .

سارعت (نادية) تقول :

- لم أقصد ذلك .

(عماد) :

- أعرف .. لست بحاجة لتدافعى عن نفسك أمامى ، وتأكدى أننى أتقبل منك أى شىء تقولينه ؛ لأننى أدرك مدى إخلاصك وصدقك .

وعاد للنظر أمامه ، وهو ينطلق بالجياد ، فى حين أخذت هى تختلس إليه النظر ، وقد أثر فيها إطراؤه ،



والصدق الذى رأته فى عينيه ، وهو يعبر عن إحساسه نحوها ، والتفتت مرة أخرى لتتطلع إلى الطفلة النائمة بحنان وإعجاب ، ثم إلى الرجل الجالس إلى جوارها ، والذى عادت تتأمل كتفيه العريضتين ، وعروق ساعديه النافرة ، وعينيه العسليتين الساحرتين ، وهى تستعيد تلك الكلمات التى قالها منذ قليل ..

كان يغازلها بطريقة لطيفة ، كما أنه عبَّر بصدق وإخلاص عن اهتمامه وثقته بها ، فقالت لنفسها فى شىء من الرجاء :

- هل يمكن أن ...

ولكنها عادت تطرد الفكرة من رأسها ، وهى تهزها بإصرار ، كما لو كانت لاتريد أن تغرق نفسها فى هذا الحلم ..

ولكنها لم تتمكن من منع نفسها من أن تحلم .. تحلم بأن تكون هذه الطفلة ، التى تشبه الملاك ابنة لها ، وأن يكون هذا الرجل زوجًا لها ، وأن يكون ذلك الرجل الطيب العجوز ، الذى تركته فى المنزل ، بمثابة الأب الذى فقدته .

هذه هى الأسرة التى طالما حلمت بها ، بعد أن عانت من الحرمان من الحب والحنان ، فى سنوات يتمها المبكرة .

لم تلبث أن أفاقت من حلمها على صوت (عماد) ، وهو يهتف قائلًا :

ـ لقد وصلنا .

وانتفض كيانها كله ..

★ ★ ★





# ٧ ـ لامكان للحب ..

عادت (نادية) إلى المنزل ، وهى تشعر بسعادة هائلة تغمرها .. لقد قضت يومًا رائعًا بالفعل مع (عماد) والطفلة ، وكان كل شىء يوحى بالبهجة والمرح .. تلك الخضرة اليانعة ، التى تميَّزت بها الأراضى الزراعية ، التى يمتلكها (عماد) وأبوه ، ورائحة الثمار الناضجة ، وهى تتدلَّى من أشجار الفاكهة ، فى الحديقة الكبيرة التى يقتنيها .. الجرى بين المروج الخضراء ، مع تلك الدعابات والشقاوة المحبَّبة ، التى جمعت بينها وبين (ريم) ..

وأجمل ما فى هذا اليوم تلك الألفة المحبَّبة ، التى جمعت بينها وبين (عماد) ..

لقد سقط حاجز الخجل والرهبة والشكل الرسمى ، الذى كان يفرض نفسه على العلاقة بينهما ..

كان قريبًا منها للغاية ، ولم تكن لكلماته وتلميحاته فقط ذلك التأثير الغريب على نفسها وروحها ، ولكن تلك النظرة فى عينيه .. نظرة فسرتها على أنها إعجاب واضح ، يعلن عن نفسه بلا شكوك ..

ولكن فى أعماقها ، كانت تشعر أن تلك النظرة تحمل ما هو أكثر من الإعجاب .

لقد عرف (عماد) طريقه إلى قلبها .. وربما هى أيضًا وجدت لنفسها مكانًا فى قلبه ..

ولكنها كانت تعود لتسكت هذا الإحساس الخفى ، وأرادت ألا تسرف فى حلمها الجميل ، حتى لايصدمها الواقع ذات يوم ، وتعرف أنها قد أعطت مشاعرها ونفسها أكثر مما تستحق ..

يكفيها ذلك التقارب ، وتلك الألفة التى جمعت بينهما ..

يكفيها أن ترى فى عينيه نظرة إعجاب وتقدير ..

عليها ألا تطمح فى أكثر من ذلك ، حتى لاتلقى نفس المصير الذى لاقته ذات يوم مع الدكتور (يسرى) ، وينتهى الأمر بجرح جديد ، تضطر من أجله إلى الهروب مرة أخرى ، لتداوى جراحها بعيدًا عن مكان أحبته ..

وارتسمت ملامح الخوف والأسى على وجهها ، وهى تقول لنفسها .

ـ كلا .. الأمر هذه المرة سيكون مختلفًا .. لأن ماأحسه نحو (عماد) أيضًا يختلف عن إحساسى نحو (يسرى) .. إننى لم أحب (يسرى) ، ولكننى رأيت فيه زوجًا مناسبًا ، لايمكن لأية فتاة أن ترفضه ، وكان ما آلمنى حقًا هو أنه رآنى غير جديرة به كزوجة ، وكان كل ما رآه فىّ هو أننى أصلح كصديقة للهو والتسلية فقط ،



وقد جرح هذا كرامتى .. أما (عماد) فعلى الرغم من الفترة القصيرة ، التى قضيتها معه ، وعلى الرغم من أن كلينا لم يصرح بحقيقة عواطفه للآخر ، إلا أن شعورى نحوه شىء آخر .. شىء لم أعرفه من قبل ، وليس بحاجة إلى تصريح ، فتلك الرجفة التى أحسها كلما لامست يداه يدىّ ، وتلك النبضات المتلاحقة التى ينبض بها قلبى ، كلما التقت عيناى بعينيه .. هذه السعادة الغامرة ، التى أشعر بها وأنا إلى جواره .. ذلك الاشتياق غير المبرر ، كلما غاب عنى .. كل تلك الأحاسيس لم أعرفها من قبل ..

لقد كان لهذا اليوم الرائع ، الذى قضته معه ، بين الأرض الخضراء والسماء الصافية ، مازادها اقترابًا وتقربًا منه ، وساعد فى تفجر هذه الأحاسيس ، وكشف حقيقتها فى نفسها .. إنها تحبه .. بل تحبه حبًا جارفًا ، على الرغم من أنه حب صامت ، لم تفكر لحظة واحدة فى أن تجاهر به ، فهى تعرف أنه لا أمل لها فى هذا الحب ، وهى تعرف أيضًا أنها لايمكنها أن تجاهر بالاعلان عنه ، فهناك الكثير من المسافات التى تفصل بينهما ، بل عليها أيضًا ألا تُسرف فى أحلامها ، حول هذا الحب ، وتتخيَّل أنه سيأتى اليوم ، الذى يمكن أن يجتاز بهما تلك المسافات ، التى تباعد بينهما ، فالخوف كل الخوف أن يعود الواقع

فيصدمها من جديد ، وهذه المرة لن يكون الجرح فى كرامتها فقط ، بل سيكون الجرح الأكبر فى قلبها .. عليها أن تكتفى بوجودها قريبه منه ، فى هذا البيت ، وبين أفراد هذه العائلة الصغيرة التى أحبتها .. عليها أن تقبل ما منَ به عليها القدر ، وألا تطمح فيما هو أكثر من ذلك .. عليها أن تقبل ذلك بنفس قانعة ، وسعادة حقيقية ، لا يفسدها الخوف من المستقبل . وأفاقت من شرودها على صوت توقُف العربة أمام باب المنزل ، وصوت (عماد) وهو يمد لها يده ، ليساعدها على النزول قائلًا :

- أتشعرين بالتعب؟

ابتسمت له ، وهى تأخذ بيد الطفلة بدورها ، لتساعدها على النزول قائلة :

- كلا .. مطلقًا .. كان اليوم رائعًا .

سُرّ (عماد) لذلك ، وهو يقول :

- إذا كان الأمر كذلك ، فسوف أدعوك كثيرًا لمصاحبتى إلى الحقول .

ولكنه ما لبث أن استطرد ، وهو يسير إلى جوارها ، متجهًا إلى المنزل :

- إذا ما سمح أبى بذلك بالطبع .

(نادية) :



- أخشى أننى سأعطلك عن عملك .

(عماد) :

- كلا .. على الإطلاق .

ثم أردف قائلًا :

- إنك تضفين بهجة على المكان ، وتجعلين اليوم ممتعًا .

خفضت بصرها قائلة :

- أشكرك على هذه المجاملة الرقيقة .

ولكنه قال بلهجة جادة ، وهو يتأمل وجهها :

- إننى لا أجاملك ، على الإطلاق ، فقد كان هذا هو شعورى اليوم .

ظل كلاهما يحدق فى الآخر ، وهما واقفان أمام باب المنزل ، كما لو كان كل منهما يسبح فى عين الآخر ، وكاد عماد يقول شيئًا آخر ، ولكنه توقف عن الكلام ، وهو ينظر إلى ابنته ، التى كانت تنظر إليهما باستغراب ، قائلة :

- أبى .. ألن ندخل المنزل .

مسح على شعرها ، قائلًا :

- أتشعرين بالتعب؟

قالت الطفلة :

- نعم .. إننى متعبة جدًّا .

(عماد) :
ـ هذا بسبب شقاوتك .. لقد أرهقت طنط (نادية) معك ، باللعب طوال النهار .
ابتسمت (نادية) ، وهى تنحنى لتحمل الطفلة قائلة :
ـ من ذا الذى يُرهق من هذا الملاك الصغير ؟
ودخلا المنزل و(نادية) تحمل (ريم) فوق صدرها ، حيث استقبلتهما (فوزية) بنظرة دهشة ، قائلة بخبث :
ـ لقد تأخرت كثيرًا هذه المرة يا(عماد) بك .. الحاج كان يسأل عنك منذ قليل .
قال (عماد) ، وآثار السعادة بادية على وجهه :
ـ سأذهب لأراه .
وانتفضت (نادية) لدى سماعها اسم (الحاج) ، وكأن شيئا قد لدغها ، فأنزلت (ريم) من فوق صدرها ، قائلة :
ـ موعد الدواء .. كيف نسيت ذلك؟ كان يجب أن يأخذ الدواء منذ ساعتين .
ولكنهما وجدا العجوز قادمًا إلى الردهة ، فوق مقعده المتحرك ، وهو يتمعن فى وجه (نادية) وابنه ، قائلا :
ـ الأمر لا يستحق كل هذا الاضطراب .. أتظنين أننى لا أستطيع أن أتناول ملعقة دواء بمفردى ؟!
قالت معتذرة :



ـ آسفة .. آسفة جدًا .. كان يتعين أن أكون موجودة هنا ، منذ ثلاث ساعات على الأقل .
قال (عماد) معتذرًا بدوره :
ـ فى الحقيقة ، أنا الذى أخرتها .. لقد مرت الساعات سريعًا ، ولم نشعر بالوقت .
قال الأب ، وهو يرتكز بمرفقيه على ذراعى المقعد :
ـ هل قضيتما وقتًا ممتعًا ؟ أعنى هل استمتعت بوقتك ؟
قالت (نادية) ، وهى تعبر عن إحساسها بصدق :
ـ لقد استمتعت به للغاية .. أشكرك لأنك سمحت لى بالخروج اليوم .
قال لها الأب :
ـ أرجو أن يكون ماتقولينه حقيقيًا ، فأنا أعرف ابنى جيدًا .. ما أن يضع قدميه فوق الأرض ، حتى يغرق نفسه فى أمور الفلاحة وجنى المحاصيل ، وصلاحية التربة ، وكل تلك الأمور التى يدس أنفه فيها ، برغم وجود مهندسين زراعيين ، وفلاحين لايحتاجون إلى رئاسته ، وينشغل بذلك عن جمال الطبيعة من حوله ، وعن حق الآخرين فى الاستمتاع بها أيضًا .
ابتسم له (عماد) ، وهو يقول :
ـ كلا يا أبى .. أؤكد لك أن اليوم كان مختلفًا ؛ فقد

استمتعنا بكل ما فى الطبيعة من جمال ..

نظر الأب إلى ابنه متمعنًا ، وهو يقول :

ـ حسن .. أرى الصدق فى عينيك .. من الغريب أنك أطلقت العنان لإنسانيتك هذه المرة .

ثم نظر إلى (نادية) قائلًا :

ـ أترين الأثر الذى تركته على ابنى؟

تورّد وجه (نادية) خجلًا ، وهى تخفض بصرها إلى الأرض ، فى حين قال الأب ، وهو يحرّك مقعده :

ـ والآن هيا لنتناول الطعام ، فأنا أشعر بالجوع ، وشهيتى مفتوحة للأكل اليوم ..

وابتعد بمقعده فى هدوء ..

★ ★ ★

انتهت (نادية) من حقن الأب بالدواء ، ثم أسندت رأسه على الوسادة ، وهى تقول له :

ـ أتريد منى أن أبقى إلى جوارك حتى تنام؟

قال لها بعينين ناعستين :

ـ كلا .. يمكنك أن تذهبى .

ثم مالبث أن انتبه من نومه ، وهو يقول لها قبل أن تنصرف :

ـ انتظرى .. لماذا لاترتدين ثوبًا آخر غير هذا الثوب؟



ابتسمت له ، وهى لاتخفى دهشتها ، قائلة :

ـ ألا يعجبك هذا الثوب؟

قال وهو يتأملها ، مغالبًا رغبته فى النوم :

ـ لابأس به ، ولكننى أعتقد أن الثوب الأخضر يضفى عليك جمالًا أكثر .. إنك لم ترتديه منذ فترة طويلة ، وأعتقد أنك بحاجة إلى بعض التغيير ، فما فائدة الثياب الجميلة ، إذا لم نرتدها؟

قالت (نادية) ، وهى مستمرة فى دهشتها من هذا الاهتمام المفاجئ والغريب ، من جانب الرجل :

ـ حسن .. سأرتديه .. إذا كنت تفضل ذلك .

قال لها الأب ، وهو يسند رأسه ، إلى الوسادة مرة أخرى :

ـ نعم .. إننى أفضّله .

ثم غمغم قائلًا بعد انصرافها :

ـ وأعتقد أن (عماد) يفضله أيضًا ، فقد رأيت فى عينيه مدى إعجابه بهذا الثوب ، الذى يزيدها فتنة .

★ ★ ★

طرق (عماد) الباب عليها عدة طرقات ، قبل أن تترك الكتاب الذى كانت تطالعه ، لتفتحه قائلة فى استغراب :

ـ أستاذ (عماد) .. هل هناك شىء؟

ابتسم لها قائلًا :

- نعم .. أوّلًا : ألا تستمرى فى منادتى بهذا الشكل الرسمى ، وثانيًا : الوقت مايزال مبكرًا على النوم ، ألا ترغبين فى قضاء بعض الوقت معى ومع (ريم) ، فى القاعة السفلية .

قالت ، وقد أسعدها اهتمامه بها :

- فى الحقيقة .. لم أكن أنوى النوم ، بل كنت أطالع إحدى الروايات .

اعتذر قائلًا :

- آه .. إذن فلا أريد أن أقطع عليك متعة القراءة .. لقد ظننت فقط أنك قد ترغبين فى قضاء بعض الوقت معى ومع (ريم) ، قبل أن تخلدى إلى النوم .

قالت :

- إننى أرغب فى ذلك حقيقة ؛ فالرواية تبدو غير مسلية ، وأنا لاأشعر بأى ميل للنوم ، كما أننى قد اطمأننت على أن والدك قد تناول دواءه ونام .

بدا على وجهه السرور ، وهو يقول :

- حسن .. (ريم) ستسعد لذلك .. سننتظرك بأسفل .

وبينما كان فى طريقه إلى أسفل ، إذا به يرى (فوزية) صاعدة ، فى حين كانت (نادية) تغلق باب غرفتها ،



وأحس من نظراتها بما يعتمل فى نفسها من شك ، لرؤيتها له قادمًا من اتجاه غرفة (نادية) ، ولكنه تعمد أن يتجاهل هذه النظرات ، قائلًا بلهجة حازمة :

- أهناك شىء ما يا (فوزية)؟

قالت بصوت ينمّ عما بنفسها :

- لاشىء .. فقط سأرتب الثياب المغسولة فى دولاب البك الكبير .

وأفسحت له الطريق ، ليهبط فى درجات السلم ، وهى تتابعه بنظراتها المرتابة ، وهمت (نادية) بارتداء معطف منزلى فوق قميص نومها ، لتهبط وتقضى الأمسية مع (عماد) و(ريم) ، ولكنها لم تلبث أن عدلت عن ذلك ، ووقفت أمام دولاب ملابسها ، وهى تفكر قليلا ، ثم تناولت الثوب الأخضر ، الذى طلب منها والد (عماد) أن ترتديه ، وبعد قليل هبطت فى درجات السلم إلى القاعة السفلية ، وقد ارتدت ذلك الثوب ، وما أن رآها (عماد) ، حتى أطلّ من عينيه بريق إعجاب واضح ، لم تخطئه عيناها ، واستقبلها بترحاب واضح ، كما لو كانت ضيفة عزيزة ، تأتى إلى منزله ، قائلًا وهو يدعوها إلى الجلوس ، فوق إحدى الأرائك :

- تفضلى .. تفضلى هنا يا (نادية) .

تلفتت حولها قائلة :

- ولكن أين (ريم)؟
قال بارتباك :
- (ريم)!. أظن أنها ذهبت إلى غرفتها لاحضار الدمى .
ثم توقف عن الكلام برهة من الوقت ، قبل أن يقول :
- أعتقد أننى لا أستطيع أن أكذب عليك .. الطفلة نائمة ، ولكننى شعرت بحاجة إلى الجلوس معك ، والحديث إليك
ثم أردف قائلًا :
- أرجو ألا يغضبك ذلك .
ردت عليه (نادية) قائلة ببساطة :
- أبدًا .. تستطيع أن تتحدث إلىَّ متى تشاء ، وليس هناك مايدعوك إلى الكذب أو الحرج ، بشرط ألا يتجاوز الوقت العاشرة مساء ، فأعتقد أنه لا يصح أن نجلس معًا بمفردنا بعد هذا الوقت .
تأملها قائلًا :
- أتخشيننى ؟
قالت بهدوء :
- كلا .. ولكننى تعودت ألا أفعل إلا ما هو صحيح .
وتلفتت حولها ، قائلة :



- بالمناسبة .. أين (فوزية)؟
ابتسم قائلًا :
- ألم أقل لك إنك تخشيننى .
نظرت إليه بثبات ، قائلة :
- لاأعتقد أنه يمكننى أن أخشى من شخص أثق به ثقة كاملة .
(عماد) :
- يسعدنى أن يكون هذا هو شعورك نحوى ، فما أريد أن أقوله قد يحمل تأويلًا خاطئًا .
قالت بعينين ملهوفتين :
- يمكنك أن تقول ماتشاء ، دون أن تخشى شيئًا .
قال لها ، بعد برهة من التردد :
- (نادية) .. إننى أشعر بارتياح بالغ نحوك .. إنه شعور لم أشعره تجاه أية إنسانة أخرى ، جاءت إلى هذا المنزل ، فأنت تبدين فتاة مخلصة ، ومستمعة جيدة ومثقفة .
واستطرد قائلًا بشيء من الارتباك :
- أعنى .. أعنى أنك الشخص الوحيد هنا ، الذى يمكننى أن أتفاهم معه ، وأن أبوح له بأسرارى وهمومى .. أرجو ألا تسيئى فهمى ، فأنا لا أقصد أية تلميحات

عاطفية .. كل ما أريد قوله هو أننى تلفت حولى ، فلم أر فى كل من يحيطون بى ، من يصلح لأن يكون صديقًا حقيقيًا .. صديقًا يشاركنى أفكارى وآرائى ، وأطـرح أمامـه مشاكلى .. وأعتقد أننى قد وجدت فيك أخيرًا هذا الصديق ، فهل تقبلين أن تكونى صديقتى؟

على الرغم من أن الكلمة جاءت مخيبة لآمالها ، إلا أنها تعمَّدت ألا يظهر ذلك على ملامحها ، وقالت له بهدوء :

- ذلك يسعدنى .

بدا عليه شىء من الارتياح لردها هذا ، وإن لم يكن كاملًا ، وهو يقول لها :

- حسن .. يسعدنى أنك قبلت صداقتى .

وقالت له (نادية) وهى تجلس إلى الأريكة :

- ولكننى أعتقد أننا صرنا أصدقاء منذ عدة أيام مضت .. أعنى منذ داومت على دعوتى للخروج معك ، وزيارة الحقول والحدائق التى تمتلكها ، ومعنا (ريم) .

قال وهو يجلس على المقعد المواجه لها :

- ربما أننى أحاول تأكيد هذه الصداقة .

وفى أعماق نفسه كان يشعر بأنه يكذب ، باستخدام هذه الكلمة للتعبير عن حقيقة مشاعره نحوها .. إنه فى الواقع مفتون بها ، والأحاسيس التى تغلغلت فى قلبه منذ أن رآها



لم يمر بها فى حياته من قبل ، ولا حتى مع زوجته السابقة ..

كانت تفلت منه فى بعض الأحيان كلمات تعبر عن هذا الإحساس ، وتكاد تنطق بحقيقة شعوره ، ولكنه لا يلبث أن يشعر بأنه لم يكن يتعين عليه أن ينطق بمثل هذه الكلمات ، وأنه تسرَّع فى التعبير عن شعور غامض ، كان المفروض أن يخفيه .. شعور هو نفسه ينكره على نفسه . فهناك أشياء كثيرة ، يتعين عليه مراعاتها دائمًا ، لابد أن تحـول بينه وبين أى إحساس خاص ، من أى نوع يربط بينه وبين هذه الفتاة ، فهناك عهده مع نفسه ألا يتزوج ، بعد وفاة زوجته ، ليتفرغ لتربية ابنته ، وألا يطرق هذا الموضوع إلا بعد أن تصبح عروسًا جاهزة للزواج بدورها ..

وهناك الفارق الاجتماعى ، الذى يفصل بينه وبين فتاة مثل (نادية) ، وهو الذى عاش وتربى وسط عائلة تراعى التقاليد الاجتماعية القديمة ..

وهناك أيضا مسئولياته تجاه الأرض ، وتجاه أبيه ..

كل تلك الأشياء ربما لم تكن ذات أهمية بالنسبة للبعض ، ولكنها بالنسبة له تعنى الكثير ، ويعرف أنه لا يستطيع أن يخالفها أو يتنصَّل منها ، لذا فقد كان يشعر بالخوف والقلق ، تجاه مشاعره نحو هذه الفتاة ، التى

أيقظت فيه أحاسيس كانت نائمة ومشاعر تتساوى تمامًا مع سعادته فى وجودها ، وما أضفته على المنزل من بهجة وحياة ، لم يكن لها وجود ..

ومع رغبته فى الاحتفاظ بقربها منه ، وتقاربه معها ، وحرصه على ألا يتحول هذا التقارب فى نفس أحدهما إلى عاطفة قوية ، قد تلزم أحدهما بشىء تجاه الآخر ، اختار كلمة الصداقة ، ليبقى على تلك الصلة التى تولَّدت بينهما ..

كان هذا هو التبرير الوحيد ، الذى يبقى كل التآلف الموجود بينهما ، دون أن يلزمه بشىء ، ولكنه كان مدركًا أنه مخادع فى استخدام هذا التعبير ، وأول من يخدعه هو نفسه ، فلو كانت لديه ذرة واحدة من شجاعة حقيقية ، لاعترف لنفسه بأنه يحبها ، ولو كان لديه المزيد من الشجاعة ، لصارحها بهذا الحب ، مهما كانت العواقب ، ومهما كانت الحواجز ، ولكنه لأوَّل مرة يشعر أنه يجبن عن اتخاذ تصرَّف ما ، وهو الذى عاش طوال عمره يتخذ قرارات شجاعة وجريئة ..

أما (نادية) ، فقد أدركت أنه رسم معها الحد الفاصل لعلاقتهما ، وأن عليها ألا تطمح فى أكثر من أن يوليها هذا المخلوق الذى أحبته ، شرف صداقتها له .. وعلى الرغم



من أنها ومنذ البداية لم تكن تطمح فيما هو أكثر من ذلك ، بل لعل ذلك كان يتجاوز طموحها ، إذ جاءت لحظة تمنت فيها أن تكون فقط إلى جواره ، تحت سقف هذا المنزل ، وأن تترك أحلامها فقط تحقق لها ذلك الحب ، الذى حرمه عليها الواقع ، إلا أنها لاتستطيع أن تنكر أنها كانت أحيانًا تتمنى لو تحولت أحلامها إلى حقيقة ، ولو صارحها بما لاتستطيع هى أن تصارحه به ، ولكن هاهى ذى الحقيقة قد جاءت ؛ لتكشف الستار عن سذاجة أحلامها ، ولتزيد من قسوة الواقع ..

الواقع الذى جعلها تحب إنسانًا لايرى فيها سوى صديقة .

صديقة فحسب .

***



# ٨ ـ عذاب الحب ..

وقفت (نادية) تراقب (عماد) ، وهو يفحص باهتمام شجيرات الخوخ والبرقوق ، وإلى جواره ملاحظ الحدائق ، حيث قال له وهو يتناول إحدى الثمرات ، ويقلبها بين يديه :

ـ الحمد لله .. المحصول جيد للغاية هذا الموسم .

قال الملاحظ :

ـ هذا بفضل رعايتك واهتمامك يا (عماد) بك .. لقد فقتنا جميعًا فى خبرتك بهذه الأرض ، وإنتاج أفضل محصول على مستوى المحافظة .. هل أطلب من المشترى الحضور ؟

قال له (عماد) ، وهو يتناول إحدى السلال ، لينتقى مجموعةً من الثمار ، ويضعها بداخلها :

ـ سأستقبله غدًا بالمنزل .

وبعد أن انتهى من جمع الثمار ، قال له :

ـ اغسل هذه الثمار جيدًا .

كانت (نادية) تراقبه من وراء إحدى الأشجار ، وهى



مبهورة بطريقته فى كسب تقدير واحترام من يعملون معه ، وبإخلاصه فى العناية بأرضه وأرض أبيه ، ولم تكن طريقته فى التعامل مع الآخرين هى التى تبهرها فقط ، بل كانت تعشق كل سكنة من سكناته ، وما لبثت أن رأته قادمًا نحوها ، وفى يده السلة ، قائلًا لها :

ـ هل تركتك تنتظرين طويلًا ؟

ابتسمت له قائلة :

ـ إننى لم أشعر بالملل قط ، ولكننى أفتقد (ريم) كثيرًا .

(عماد) :

ـ وماذا نفعل ؟.. إذا كانت فضلت أن تبقى فى صحبة جدها اليوم .. إننى فقط أخشى أن تضايقه بشقاوتها .

(نادية) :

ـ لذا أفضل أن نسارع بالعودة إلى المنزل ، ويمكننى أن أذهب بمفردى ، إذا كان الأمر يستدعى بقاءك هنا .

(عماد) :

ـ هكذا سريعًا ؟ إننا لم نتحدث معًا بعد ، ولم يمض على حضورنا سوى نصف ساعة فقط .

(نادية):

ـ إننى لا أريد أن أكون معوّقة لك فى رعايتك لأرضك .

(عماد) :

- إنك لاتعوقيننى على الإطلاق .. ألا ترين؟.. إننا نحصد الآن نتيجة الجهد والتعب ، فقد أينعت الثمار ، ولم يعد باقيًا سوى التعاقد على بيعها .

ثم دعاها إلى الجلوس ، فوق ملاءة مفروشة فوق العشب الأخضر ، وهو يقول لها :

- وجهك جاء لنا بالخير ، فمنذ عدة سنوات لم يأت المحصول بهذه الوفرة والجودة .

ثم قدم لها سلة الفاكهة ، قائلًا :

- هذا تعبير بسيط عن امتنانى لك .

قالت بارتباك :

- ولكننى لم أفعل شيئًا قط .. الفضل يرجع بلا شك لمجهودك ، وجهود العاملين معك .

ابتسم لها (عماد) ، وهو يحدجها بنظرة تُعبّر عن إعجابه ، قائلًا :

- لاتبخسى نفسك قدرها ، لقد تفاءلت بك منذ الوهلة الأولى ، التى رأيتك فيها .

ضحكت قائلة :

- كان لقاؤنا الأول صاخبًا .. أتذكر ذلك؟

قال ، دون أن يبعد عينيه عن ملامحها :

- أذكر كل لحظة التقيت بك فيها .



ازداد ارتباكها إزاء نظراته المحاصرة ، فخفضت بصرها قائلة :

- إنك لم تحدثنى أبدا .. عن والدة (ريم) .

أطلق زفرة قصيرة ، وهو يحوّل بصره عنها ، متطلّعًا إلى الأفق الممتد أمامه ، وقال :

- لا أستطيع أن أقول عنها سوى أنها كانت سيدة شديدة الطيبة ، بكل معنى الكلمة ، إنها لم تتوان عن بذل كل الجهد ، لتكون زوجة صالحة ومخلصة ، ترعى بيتها ، وتطيع زوجها .. وكانت فرحتها الكبرى هى ابنتنا الوحيدة (ريم) .. لقد كان مجىء (ريم) ترسيخاً واستقرارًا لزواج تقليدى ، ولكن الأمر لم يدم طويلًا ، فقد توفيت زوجتى ، وانتهى الزواج .. رحمها الله .

وعلى الرغم من الحزن البادى فى عينيه ، وهو يتحدث عنها ، إلا أن (نادية) لاحظت أنه لم يقل شيئًا عن حقيقة عواطفه نحوها ..

لقد تحدث عن طيبتها ، وعن إخلاصها وطاعتها له ، وعن الصلة الطيبة التى جمعت بينهما ، ولكنه لم يذكر شيئًا عن مشاعره تجاهها ، مما أثار فضولها ، خاصة وقد قال شيئًا عن أن زواجه منها كان تقليديًا فقالت له :

- هل كنت تحبها ؟

صمت قليلا وهو شارد ، قبل أن يقول :

- إذا كنت تقصدين بالحب تلك المشاعر الملتهبة المتأججة ، التى تجمع بين شخصين ، فلا مناص من الاعتراف بأن شيئا كهذا لم يكن موجودًا بيننا ، أما إذا كنت تقصدين حُسن المعاشرة ، والتوافق الذى يجمع بين زوجين ، يرعى كل منهما مشاعر الآخر وأحاسيسه ، فقد كان هذا قائمًا بيننا بالفعل .. وكان زواجنا تقليديًا كما أخبرتك ، فقد رشحتها لى عمتى ، التى كانت تعرف عائلتها ، وكان أساس ترشيحها لى .. هو ثراؤها وأصلها الطيب ، والاسم المرموق الذى تحمله عائلتها ، ولما كان الأمر يتساوى بالنسبة لى فى هذه الفترة ، حيث لم أجرِّب مشاعر الحب من قبل ، ولم ألتق بتلك الفتاة ، التى يمكنها أن تجعلنى أتمسك بها ، بدافع من العاطفة القوية ، فقد وافقت على اختيار عمتى ، وتم عقد القران سريعًا ، إذ لم تكن هناك أية مشكلة تعوق سرعة إتمام هذا الزواج ، فلا انتظار لترتيبات مادية ولا انتظار لحدوث بعض التقارب العاطفى ، إذ لم يدخل هذا ضمن شروط الزواج .. ووفقًا لهذا الترتيب كانت زيجة مناسبة ، وكانت (نوال) زوجتى زوجة مثالية ، لرجل لايطمح إلى عواطف قوية وحب متأجج ، ولكن كما سمعت ، فالأمر لم يدم طويلًا ،



واختارها الله إلى جواره ، وكل منا راض عن الآخر ، وعن الحياة التى عشناها معًا .

اكتنف (نادية) إحساس بالذنب ، لما انتابها من سرور مبهم ، بسبب عدم تحدثه عن مشاعر حب قوية ، تجاه زوجته الراحلة ، وتساءلت بينها وبين نفسها أكانت ستشعر بشىء من الغيرة ، لو كان قد روى لها عن حب قوى عميق ، تجاه هذه المرأة المتوفاة ، والتى كانت ذات يوم زوجة لهذا الرجل ، الذى أحبته بكل خلجة من خلجات نفسها ، والذى لم تكن تتصوَّر أنه يمكن لأية فتاة أو امرأة أخرى أن تحبه ، بنفس القدر الذى يختزنه حبها الصامت ، بدلًا من حديثه عن تقديره واحترامه الشديد لها ولذكراها ؟.

من المؤكد أنه ليس لها الحق فى مثل هذه الغيرة ، ولكن من المؤكد أيضا أنه لم يكن سيمكنها مقاومة هذا الإحساس .

أفاقت من خواطرها على صوته ، وهو يسألها بنبرة مبهمة :

- وأنت؟

نظرت إليه فى دهشة ، قائلة :

- وأنا .. ماذا ؟

(عماد) :

ـ ألم يكن هناك شخص ما فى حياتك؟

صمتت برهة وهى لاتدرى بم تجيبه ، فى حين أردف هو :

ـ إذا كنت تعتبرين ذلك شيئًا شخصيًا ، فليس هناك مايدعو إلى الكلام .

قالت ساهمة :

ـ ليس فى الأمر شىء شخصى .. لقد كان فى حياتى شخص ما ، ولكنه مَر فى حياتى بطريقة عابرة .. إعجاب فتاة بلاتجارب ، وبلا طموحات عاطفية مثلك بطبيب شاب ، ظنت أنها ستجد معه الأمان والدفء الذى حُرمت منه ليتمها المبكر ، ثم تبيَّن لها أنها كانت مخطئة تمامًا ، فى كل تصوراتها حول ذلك الشخص ، فودعته غير آسفة عليه .

ثم نظرت إليه ، وابتسامة باهتة تتراقص على شفتيها ، وكأنها تحاول أن تتغلب بها على مرارة الذكرى ، قائلة :

ـ هل يُرضى هذا فضولك؟

بادلها ابتسامتها ، قائلًا :

ـ أعتقد أننى قد أصبحت فضوليًا ، فى كل ما يتعلقَ بك .

ثم عاد يقول ، وهو يناولها إحدى الثمار من السلة :

ـ إذن فأنت مثلى ، لم تعرفى الحب من قبل .



عادت (نادية) إلى تلك النظرة الساهمة على وجهها ، وهى تتنهد قائلة :

ـ أحيانًا يتمنى المرء لو لم يعرف الحب قط .

(عماد) :

ـ أتعتقدين أن الحياة بلا حب توفر للمرء السعادة التى ينشدها؟

(نادية) :

ـ إنها على الأقل توفر له عذابًا ، لايعرف له نهاية .

تأملها (عماد) قائلًا :

ـ تتحدثين عن الحب وكأنه مأساة .

قالت (نادية) سريعًا :

ـ أحيانًا يكون كذلك بالفعل ، لو أن .. لو أن ..

توقفت (نادية) عن متابعة حديثها ، وقد انتبهت إلى نفسها ..

لقد كادت تكشف ما تخفيه فى أغوار نفسها .

كادت تقول له إن الحب يكون مأساة ، إذا كان أحد طرفيه لايشعر بما يعتمل فى نفس الآخر ، ولا يبادله لهيب مشاعره .. اشتياقه ، ولهفته ، وهيامه .

ذلك كان كفيلًا أن يكشف عن عذابها فى حبه ، واستسلامها الصامت لقدرها ، الذى جعلها تلتقى به ، ليحرمها منه .

سألها (عماد) قائلا :

ـ لماذا سكت؟ ماذا كنت تريدين أن تقولى؟

هزت (نادية) رأسها ، قائلة :

ـ لا .. لاشىء .. المرء يحب أحيانا أن يفلسف الأمور بلا مبرر .

نظر إليها (عماد) ، وكأنه يحاول الغوص فى أعماق نفسها ، قائلا :

ـ لايا (نادية) .. ماتقولينه لايبدو وكأنه محاولة للتفلسف .. إنك تتحدثين عن الحب كما لو كنت تعيشين عذابه بالفعل .

قالت (نادية) ، وكأنها تحاول أن تنفى عن نفسها اتهامًا :

ـ قلت لك إننى لم ألتق بالحب من قبل .

(عماد) :

ـ ولكن عينيك تنطقان بغير ذلك ..

قالت مداعبة ، لتهرب من حصار عينيه :

ـ إذن فأنت حكيم العيون ، الذى غنى له (عبد الوهاب) .

ولكنه لم يبادلها المزاح ، بل قال بجدية :

ـ لعلك لم تكونى صادقة معى تمامًا ، فيما قلته عن ذلك



الطبيب الشاب ، ولعلك مازلت تحملين له عاطفة قوية .

كادت تصرخ فى وجهه ، قائلة :

ـ إنك لا تفهم شيئا .. كيف يمكننى أن أجعلك تفهم أننى لم أعرف الحب إلا على يديك؟ .. ولم أحمل لأحد تلك العاطفة ، التى تستعر بداخلى إلا لسواك؟ .. كيف يمكننى أن أفعل ذلك ، دون الخوف من أن ينتهى الأمر بيننا إلى جراح فى القلب قد لاتندمل ، وفراق قد لاأقوى عليه .. ليس الاعتراف فقط هو ما أخشى البوح به ، بل إننى أخاف أيضا أن تدرك حبى لك ، فربما جعلك ذلك تسعى لإبعادى عنك ، وحرمانى حتى مما رضيت به من قدرى .

قالت ، وهى تستعد للنهوض :

ـ أظن أنه يتعين علينا أن نعود إلى المنزل الآن ، فيجب ألا أتأخر عن تقديم الدواء لوالدك ، كما أن (ريم) قد أوحشتنى .

ولكنه جذبها من ذراعها بعنف ، ليجلسها مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ إنك لم تجيبى عن سؤالى .. هل أحببت ذلك الطبيب .. ومازلت تحملين له شيئا من الحب فى قلبك؟

قالت وفى عينيها نظرة عتاب :

ـ أعتقد أننى قد أجبت عن سؤالك هذا من قبل ، وقلت لك :

- إن ماكان بينى وبينه لم يكن حبًا .

ثم أردفت قائلة :

- إلا إذا كنت مصرًا على اتهامى بالكذب .

أحسَّ (عماد) أنه أساء التصرّف ، وترك العنان لشعور أحمق بالغيرة ينطلق ، دون أن يتمكن من السيطرة عليه ، فترك ساعدها قائلًا :

- آسف .. أرجو أن تصفحى عن حماقتى .

قالت (نادية) ، وهى تتحسَّس آثار أصابعه على ساعدها ، وماسبَّبته لها من ألم :

- ألاترى أن تصرّفك هذا يتجاوز حدود الصداقة ؟!

قال وقد زاده تأنيبها إحساسًا بالأسف:

- ماذا أفعل ، لكى أنال صفحك ؟

قالت وهى تنهض :

- تسرع بمصاحبتى إلى المنزل على الفور .

عاد يتناول الثمرة ، التى أعادتها (نادية) إلى السلة ، ليقدمها لها قائلًا :

- يجب أن تأكلى الثمرة هذه المرة ، حتى أعرف أنك قد سامحتنى ، على سوء تصرفى ومعاملتى لك .

ابتسمت له ابتسامة صافية ، وهى تقضم الثمرة ، ثم نظرت إليه قائلة :



- إنها حلوة المذاق للغاية .

قال وهو يتأملها بإعجاب :

- إنك أكثر منها حلاوة .

قدَّمت له الثمرة بعد أن أكلت نصفها ، قائلة :

- لا تصدر حكمك قبل أن تتذوّقها .

مد لها يده ليتناولها منها ، ولكنها جذبت يدها سريعًا ، وهى ماتزال محتفظة بالثمرة فى يدها ، ثم انطلقت تركض أمامه ، وهى تطلق ضحكاتها واندفع هو يركض خلفها ، وهو يتوعدها فى جو من البهجة والمرح ، بدَّد تلك الأحاسيس التى سيطرت عليهما منذ لحظات ، ولكنه كان يتوقف من آن لآخر ، وهو يشعر بالحرج ، كلما مرَّت به مجموعة من الفلاحين ، الذين كانوا ينظرون إليهما فى دهشة واستنكار ، فهم لم يتعودوا رؤية (عماد) ، وهو يلهو على هذا النحو الصبيانى ، وأخيرا تمكن من اللحاق بها ، حيث جذب الثمرة من يدها ، وهو يقبض على معصمها باليد الأخرى ، وقضم قطعة من الثمرة وهو يلهث ، ثم مالبث أن نظر إليها فى اشتياق ، قائلًا وهو مايزال قابضًا على معصمها :

- هانحن ذا قد تذوقنا الثمرة .

ثم نظر إلى شفتيها ، وقد ازدادت نظرة الشوق فى عينيه ، وهو يستطرد :

- أتمنحيننى الآن فرصة للمقارنة ، حتى يكون حكمى عادلًا كما قلت؟

أحسّت (نادية) برجفة فى جسدها ، وهى تسمع منه هذا القول ، وترى تلك النظرة فى عينيه ، وتساءلت :

أيكون هذا تعبيرًا عن حب ، أم تعبيرًا عن رغبة عابرة ؟ لكنها سُرعان ماتمالكت نفسها ، وهى تردعه بقولها :

- هأنتذا تعود مرة أخرى لتتخطى حدود الصداقة بيننا .

نبّهه قولها إلى الحقيقة التى ذكرتها ، وإلى اندفاع مشاعره مرة أخرى ، فعاد لكبحها وهو يقول :

- أردت أن أرد على مداعبتك فقط .

ثم ساعدها على ركوب العربة ، وهو يشد لجام الجياد ، متجهًا إلى المنزل ، وظل كلاهما طوال الطريق يختلس النظر إلى الآخر ، وهو حائر إزاء عاطفته ، التى لايقوى على البوح بها .

كان كل منهما بلا شك سعيدًا بقربه من الآخر ، ولكنه لايعرف إلى أى مدى يمكنه أن يكبح جماح مشاعره ، ويحافظ على أسرار عاطفته الملتهبة .. مابينهما يحمل قدرًا من السعادة ، ويحمل أيضًا قدرًا من العذاب ..

وعندما وصلا إلى المنزل ، قفزت (نادية) من العربة ، قائلة :



- أتحداك هذه المرة أن تلحق بى .

واندفعت تركض فى اتجاه الباب ، فى حين انطلق (عماد) خلفها غير عابئ بنظرات (عبد العظيم) ، أو بمن يراه فى المنزل ..

لقد شغلتهما سعادتهما ولهفتهما فى الحصول ، ولو على قدر ضئيل من لهو الأحباء ، عن أى شىء آخر ..

وفى اللحظة التى وصلت فيها (نادية) إلى الباب وهى تلهث كان (عماد) قد أطبق على معصمها ، قائلًا وهو يضحك :

- هأنذا لحقت بك مرة أخرى .. لاتحاولى أن تتحدينى .

وبينما كان يعبث فى جيبه بحثًا عن المفتاح ، وهو مايزال ممسكا بمعصمها ، وقد انطلقت ضحكاتهما غير عابئين بشىء ، إذا بالباب يُفتح فجأة ، لتظهر من خلفه سيدة تبدو فى الستين من عمرها ، وإن بدت ملامح شخصيتها القوية واضحة ، فى نظرات عينيها المستنكرة ، وملامح وجهها الصّارمة ، حيث حدجتهما بنظرة حادة ، جعلت (عماد) يفلت معصم (نادية) من يده ، وقد بدا عليه الارتباك والاضطراب ، وهو يقول :

- عمتى ؟

وارتجفت (نادية) ..

* * *

# ٩ ـ أحبها ..

سألها (عماد) ، قائلًا :

ـ متى حضرت؟

أجابته ، وهى توجِّه إليه تلك النظرة الصارمة ، التى زادته ارتباكًا :

ـ منذ ساعتين .. لقد توقعت حضورك إلى المحطة بالسيارة ، لتكون فى استقبالنا ، ولكنك لم تحضر ، على الرغم من أننى اتصلت بك هاتفيًا ، منذ ثلاثة أيام ، وأخبرتك بموعد حضورنا.

ضرب (عماد) بيده على جبهته ، قائلًا :

ـ يالى من أحمق .. لقد نسيت .. آسف جدًا يا عمتى .. كنت مشغولًا للغاية ، بعدة أشياء تتعلق بالأرض وجنى المحصول ، مما جعلنى أنسى موعد حضورك .

نظرت بطرف عينها إلى (نادية) ، قائلة :

ـ مشغول بالأرض أم بأشياء أخرى؟ .. ألا تقدِّمنى إلى الآنسة؟

قدم إليها (نادية) ، وهو يحاول أن يرسم على وجهه ابتسامة ، يخفى بها ارتباكه :



ـ (نادية) .. الممرضة الجديدة ، التى تتولى رعاية أبى .

مدت لها يدها لتصافحها بشىء من التعالى ، قائلة :

ـ إنها لاتبدو فى هيئة ممـــرضة ، بأى حال من الأحوال .

أحسَّت (نادية) بنظرة البغض فى عينيها ، وأرادت أن ترد عليها ردًا يتناسب مع هذا التعليق اللاذع ، ولكنها تمالكت نفسها ، وقالت بدلًا من ذلك :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا هانم .

قالت لها العمة بطريقة جافة :

ـ وسلامتكما أنتما أيضًا ، فأنا فى انتظاركما منذ ساعتين .. قولى لى يا آنسة : أليس من المفروض أن تبقى الممرضة إلى جانب مريضها ، خاصة إذا كان متقدمًا فى السن ، وبحاجة لمن يرعاه مثل أخى ، أم تتركه وحيدًا وتخرج للنزهة؟

أرادت (نادية) أن ترد عليها ، ولكن (عماد) تدخَّل لإنقاذ الموقف ، قائلًا :

ـ (نادية) تقوم بعملها على أكمل وجه ، وأبى مستريح تمامًا لوجودها ، ولكننا لن نحولها إلى سجينة طوال اليوم فى المنزل بالطبع .. لقد ألح أبى عليها كى تحصل على

بعض الوقت ، للترويح عن نفسها ، وتمنحه بعض الوقت للانفراد بنفسه ، وهذا لايخل مطلقًا بنظام ومواعيد الدواء ، وبعملها الذى يحظى بكل تقدير .

حدَجته بنظرة تنمّ عن الشك وعدم الاقتناع بهذا الرد ، فى حين قالت لهما (نادية) ، وهى تهم بمغادرة الردهة :

بعد إذنكما .. سأذهب لرؤية (فهمى) بك ، وتقديم الدواء له .

وفى تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام تهبط السلم الداخلى ، وفتاة تصيح قائلة :

ـ (عماد) .. أين كنت؟

استقبلها (عماد) بترحاب ، وهو يحتضنها قائلًا :

ـ (هدى) .. إنك تبدين أكثر إشراقًا وجمالًا ، عن المرة التى قابلتك فيها من قبل .

ثم صافح الشاب الذى لحق بها فى حرارة ، قائلًا :

ـ وأنت يا (علاء) .. ما أخبار خسائرك المادية؟

ضحك (علاء) قائلًا :

ـ ليست بأفضل من المرات السابقة .

(عماد) :

ـ لابد إذن أنك ستطالبنى بسلفة جديدة .

قال (علاء) بمرح :



ـ وهل لى من منقذ سواك؟.. حفظك الله لى يا أخى الحبيب .

(عماد) :

ـ ماذا أقول؟ سمعًا وطاعة يا أخى المفلس دائمًا .

أحسّت (نادية) أنهما ينظران إليها بفضول ، على عكس العمة ، التى ماتزال تحدجها بنظرة تنم عن الارتياب ، وكراهية بلا أسباب ، لكنها تجنبت نظراتهم ، وهى تهم بصعود الدرج لرؤية العجوز ، وإن كانت قد ألقت على الشابين نظرات مختلسة ، ولكن (عماد) استوقفها قائلًا :

ـ انتظرى يا (نادية) .. أقدّم لك أخى (علاء) وأختى (هدى) .

صافحتها (هدى) بحرارة ، قائلة :

ـ لابد أنك الممرضة الجديدة .. أبى يمتدحك كثيرًا .

وصافحها (علاء) بدوره ، وهو يغمز لأخيه بخبث قائلًا :

ـ يا لها من فتاة باهرة الحسن !.. لك الحق فى أن تنسى موعد وصولنا ، وتنشغل عن استقبالنا .

صاح فيه (عماد) بغضب ، قائلًا :

ـ (علاء) .

أحست (نادية) بحرج بالغ ، فاندفعت تصعد فى درجات السلم ، وقد كادت قدماها تتعثران فى أثناء صعودها ، واستقبلتها (ريم) بلهفة ، لدى وصولها إلى حجرة جدها ، وهى تفتح ذراعيها هاتفة :

ـ طنط (نادية) .. لماذا تأخرت هكذا ؟

احتضنتها (نادية) قائلة :

ـ لقد انشغل أبوك ببعض الأمور الخاصة بالأرض ، مما جعلنا نتأخر .

قالت (ريم) ، وهى تزيد من ضغط ذراعيها الصغيرتين حول عنقها :

ـ لقد أوحشتنى كثيرًا .

قبلتها (نادية) ، قائلة :

ـ وأنت أيضًا يا حبيبتى .. أوحشتنى كثيرًا .

سألتها (ريم) :

ـ هل تحبيننى حقًا ؟

(نادية) :

ـ وهل لديك شك فى ذلك يا حبيبتى ؟

(ريم) :

ـ إذن ... فلن تتركينا .

قالت (نادية) ، وهى لاتدرى بماذا تجيب الطفلة :



ـ لابد أنه سيأتى يوم ، أغادر فيه هذا المنزل ، ويجب أن تكونى مهيأة لشىء كهذا ، فعملى يقتضى ذلك .

قالت (ريم) بحزن :

ـ ولكننى أحبك كثيرًا ، ولا أريد أن تفارقينا أبدًا .

قالت (نادية) ، وهى تغالب تأثرها :

ـ وأنا أيضًا أحبك كثيرًا ، ولكننى لاأستطيع أن أبقى هنا بصفة دائمة .

قالت الطفلة ببراءة :

ـ لماذا لاتتزوجين أبى ؟ إنك فى هذه الحالة ستكونين أمًا لى ، وستبقين معى فى هذا المنزل ، ولن تغادريه أبدًا .

بوغتت (نادية) من قول الطفلة ، ولم تدر ماذا تقول ، ولكن صوت العمة ردها إلى صوابها ، وهى تنادى الطفلة بنبرة غاضبة ، قائلة :

ـ (ريم) .. ألم تذهبى إلى سريرك بعد ؟

ثم تناولت الطفلة من بين يدى (نادية) ، وهى تنظر إليها شذرًا ، قائلة :

ـ ألم تقدمى الدواء لأخى بعد ؟

خفضت (نادية) بصرها ، ثم أسرعت تخطو نحو غرفة الحاج (فهمى) ، حيث وجدته جالسًا فوق مقعده ، وهو يواجه الباب ، وكأنه فى انتظارها ، فحيته قائلة ، وفى صوتها رنة حزن :

ـ آسفة إذا كنت قد تأخرت عليك .
قال العجوز بوجه باسم :
ـ أبدًا .. مازال باقيًا على موعد الدواء ثلاث دقائق .
اتجهت (نادية) على الفور لإعداد الحقنة ، التى ستحقنه بها ، فى حين استطرد هو :
ـ هل قضيت يومًا طيبًا ؟
(نادية) :
ـ نعم .
الحاج (فهمى) :
ـ وماذا عن (عماد)؟.. أعنى هل تمتع بيومه هو الآخر ؟
(نادية) :
ـ أعتقد ذلك .
وحقنته فى ذراعه ، وهو يتأملها مليًا ، ثم قال لها ، وهى تمرِّر قطعة القطن المبلّلة بالكحول على ذراعه فى مكان الحقن :
ـ إذن .. لماذا يبدو صوتك حزينًا هكذا ؟
(نادية) :
ـ لا .. لا شىء .
ـ الحاج (فهمى) :
ـ هل التقيت ببقية أفراد الأسرة ؟
(نادية):



ـ نعم .. لقد تعرَّفتهم .
الحاج (فهمى) : .
ـ إذن فقد التقيت بأختى (شكرية) .
(نادية) :
ـ نعم .
الحاج (فهمى) :
ـ هذا يفسر ذلك التجهّم على وجهك .. (شكرية) غالبًا ماتترك أثرًا سيئًا على كل من تلتقى به .
(نادية) :
ـ (شكرية) هانم لم تفعل بى شيئًا .
الحاج (فهمى) :
ـ لاتحاولى مجاملتى .. إنها أختى ، وأنا أعرفها جيدًا .. إنها غالبا ماتأتى إلى هذا المنزل بالزوابع والأعاصير .
ثم دعاها إلى الاقتراب منه ، وهو يهمس لها قائلًا :
ـ ما الذى ضايقك منها ؟
قالت فى حرج :
ـ إنها لم تضايقنى بأى شىء .. هل تريد شيئًا آخر ؟
نظر إليها بتمعن ، وقد بدا غير قانع بهذه الإجابة ، وهو يقول :

- على كل حال ، عليك أن تتحمليها بعض الشىء ، طوال الفترة التى ستقضيها هنا ، حتى ترحل .. كلنا نفعل ذلك .. وأنا أولهم .. وإن لم يمكنك ذلك ، فعليك أن تتجنبيها بقدر المستطاع .

أغلقت (نادية) باب الغرفة خلفها ، فى حين قال العجوز لنفسه مستطردًا :

- وإن كنت أعتقد أنها لن تتركك لحالك أبدًا ، فهذه (شكرية) ، وأنا أعرفها ..

كان (عماد) مستغرقًا فى القراءة بمكتبته ، عندما دخلت عليه عمته ، فتوقف عن متابعة صفحات الكتاب المفتوح أمامه ، قائلًا :

- عمتى .. تفضلى ..

اقتربت منه العمة ، لتقدم له فنجانًا من الشاى ، قائلة :

- هذا الشاى أعددته لك بنفسى .

(عماد) :

- أشكرك يا عمتى .. لم يكن هناك مايدعوك إلى أن تتعبى نفسك .

جلست العمة فى المقعد المواجه لمكتبه ، وهى تدخل فى الموضوع مباشرة ، قائلة :

- أحوالك لاتعجبنى يا (عماد) .



نظر إليها (عماد) بدهشة ، قائلًا :

- لماذا تقولين هذا يا عمتى؟

العمة :

- إلى متى ستبقى على هذا الحال عازفًا عن الزواج؟ العمر يتقدم بك ، وأنت بحاجة لوجود زوجة بجانبك .

(عماد) :

- أنت تعرفين رأيى فى هذا الموضوع .. إن حياتى أصبحت ملكًا لابنتى ، ومسئوليتى الأولى تجاهها وتجاه أبى ..

العمة :

- وما الذى يمنع أن تقوم بمسئوليتك تجاه ابنتك وأبيك وتتزوج أيضًا؟.. ألست الرجل الوحيد الذى لديه ابنة؟.. الكثيرون غيرك لديهم ضعف مسئولياتك ، ومع ذلك تزوجوا وأصبحوا سعداء فى حياتهم ، دون أن يحول ذلك بينهم وبين القيام بمسئولياتهم ، خاصة إذا كانت الظروف المادية للزوجين متناسبة .

نظر إليها (عماد) ، وقد أدرك الفكرة التى تدور فى رأسها ، قائلًا :

- فهمت .. إنك ترشحين لى زوجة جديدة ذات ثراء .

العمة :

- نعم .. (مديحة) ابنة (حسنين بك مذكور) .. رجل أعمال ثرى ، وليس له سوى ابنته الوحيدة .. لقد خصّص معظم ثروته لها .. إنها ...

قاطعها (عماد) قائلًا :

- يا عمتى .. لدينا مايكفينا والحمد لله ، ولسنا بحاجة إلى أموال ابنة (حسنين) بك هذا .

قالت العمة بغضب :

- وهل ستبقى طوال حياتك مكتفيًا برعاية الأرض فقط؟ إن غيرك ممن هم أقل منك أصالة يلعبون بالمال ، وثروة مثل ثروة (مديحة) كفيلة بأن تجعلك تتوسع فى عدة مشاريع ، بالإضافة إلى أنها من أصل عريق ، فجدها هو (مذكور) باشا ، من عائلة ...

عاد لمقاطعتها مرة أخرى ، قائلًا :

- إنك لن تتغيرى أبدا يا عمتى .. مازالت المقاييس بالنسبة لك مادية بحتة .

العمة :

- ألا تريد أن تتوسع ، وتكون رجل أعمال مشهور؟

(عماد) :

- كلا .. إنى سعيد بحياتى هكذا ، والأرض تعطينى من خيرها مايزيد على حاجتى ، كما أننى لست بحاجة إلى زوجة تشاركنى حياتى .



العمة :

- معك حق .. مادامت هذه الفتاة اللعوب تشاركك المنزل ، وتملأ عليك تفكيرك ، وتلاحقك أينما ذهبت .

انتفض (عماد) ، قائلًا بغضب :

- عمتى .. لايحق لك أن تصفيها بهذا الوصف .

قالت بصرامة ، دون أن يؤثر عليها انفعاله :

- وبماذا تريد أن أصفها إذن؟.. لقد سمعت الكثير من الروايات عن علاقتكما ، منذ جئت إلى هنا .. تسلّل إلى غرفتها فى الليل ، بعد أن ينام الجميع .. خروجها الدائم معك .. لقد نسيت أنك تعيش فى قرية ، ولا يمكن إخفاء مثل هذه الأمور هنا .. الكل يتحدث عنكما ، وعن تلك الفتاة العابثة ، التى تعيش فى منزلك .

قال (عماد) بغضب ، وقد ازداد انفعاله :

- هذا كذب .. كذب .

العمة :

- إنكارك لن يفيد شيئا .. لقد ذهبت لزيارة الأرض اليوم ، ووجدت الكثير من الأقاويل عن علاقتك بهذه الفتاة .

(عماد) :

- أقسم لك ياعمتى .. إنه لم يحدث أى شىء بينى وبين

هذه الفتاة ، وأنها إنسانة فاضلة بكل معنى الكلمة .

العمة :

- الفتاة الفاضلة لاتسمح لأى شخص أن يأتى إلى حجرتها متى شاء .. الفتاة الفاضلة لاتخرج بمفردها مع رجل غريب عنها ، لتلهو وتعبث معه على مرأى من الجميع .. لماذا لم يحدث هذا مع الممرضات الأخريات ؟ هل تستطيع أن تخبرنى ؟.. العمل الوحيد للممرضة هو أن تبقى إلى جوار مريضها ، ولا تفارقه إلا لغرفة نومها فقط ، لا أن تسعى لملاحقة ابنه على هذا النحو الذى رأيته ، والذى يتحدث عنه الجميع .. لو أنك لا تقيم وزنًا أو اعتبارًا لسمعتك ، فيجب عليك على الأقل أن ترعى سمعة ابنتك .

وفجأة فتح باب غرفة المكتبة ، ودخل الأب على مقعده المتحرك ، وهو يصرخ قائلًا :

- كفى .

ثم استطرد غاضبًا :

- ألن تكفى عن تسميم حياتنا يا (شكرية) ؟

قالت العمة بصرامة دون أن يبدو عليها التأثر من لهجة أخيها :

- أنت الذى تسمم حياة ابنتك وحفيدتك ، بموافقتك على مايدور هنا فى منزلك .. كيف سمحت لها بملاحقة ابنك



على هذا النحو ؟. بل كيف سمحت لها بالبقاء حتى الآن ، وأنت الذى تخصص فى إبعاد كل ممرضة أحضروها لك هنا ؟

قال أخوها :

- أنا حر .. أستبقى من أشاء وأبعد من أشاء .. فمازال هذا البيت بيتى ..

العمة :

- أى بيت ؟.. البيت الذى كدت تضيعه برعونتك واستسلامك لداء القمار .

صاح الأب :

- (شكرية) .

ولكنها استمرت فى قولها :

- يجب أن تعرف أننى أحمل اسم هذه الأسرة ، كما تحمله ويحمله ابنك ، وحفيدتك من بعده ، ومادمت أنتمى إليها ، فلن أسمح بأى شىء يؤثر على اسمها .

وفى تلك اللحظة كانت (هدى) قادمة من الخارج ، عندما سمعت هذا الصخب الآتى من غرفة المكتبة ، ووجدت أخاها (علاء) .. جالسًا فوق أحد المقاعد ، التى تتوسط الردهة ، وهو يتصفح إحدى المجلات ، فسألته قائلة :

- ما هذا؟ ماذا يدور بالداخل؟

قال لها (علاء) بلا مبالاة :

- إنك تعرفين عمتك .. لقد بدأت فى فتح نيران مدافعها الثقيلة .

نظرت (هدى) إلى باب الحجرة المغلق ، حيث يدور النقاش ، قائلة بقلق :

- ومن الضحية هذه المرة .

ابتسم (علاء) قائلًا :

- إنها الممرضة الجديدة .

(هدى) :

- يا لها من مسكينة !

(علاء) :

- يبدو أنها ليست مسكينة تمامًا كما نتصوَّر ، فهناك أقاويل كثيرة تدور حولها ، كما أننى لاحظت اهتمام (عماد) غير العادى بها .

(هدى) :

- اتق الله .. أتريد أن تظلمها أنت الآخر ؟

(علاء) :

- إننى لا أظلم أحدًا ، ولكن يبدو أن هذه هى الحقيقة ..



على كل ، هذا شىء لا يهمنى ، فمن حق (عماد) أن يعيش حياته .

وفى تلك اللحظة برزت (ريم) من أحد أركان الردهة ، وهى تبكى قائلة :

- لماذا تسيئون إلى طنط (نادية) هكذا؟.. لماذا تريدون منها أن تغادر المنزل وتتركنى ، كما فعلت أمى؟

فوجئ الأخوان بظهور الطفلة ، ولما يدريا بماذا يجيبانها ، فى حين اندفعت (ريم) لتفتح باب غرفة المكتب ، غير عابئة بالنقاش الحاد ، الذى يدور بين الابن والأب والعمة ، لتحتضن أباها قائلة وهى تنتحب :

- أبى طنط (نادية) تريد أن تغادر المنزل مرة أخرى؟

قال (عماد) ، وقد بدا عليه الانزعاج :

- المسكينة .. كيف لم أنتبه لذلك؟.. لقد كانت أصواتنا عالية ، ولا بد أنها سمعت كل شىء .

قالت (هدى) ، وهى تدخل مع أخيها إلى الحجرة :

- بالطبع .. أنا نفسى سمعت أصواتكم خارج باب المنزل .

قالت العمة بلهجة متصلِّبة :

- دعها ترحل .. سيكون هذا أفضل للجميع .. وإذا كان أمر والدك يقلقك ، فسوف أحضر له ممرضة أفضل منها ،

وأكثر تمسكا بالتقاليد والاحتشام .. إننى كنت أنوى طردها من هذا المنزل على كل حال .

قالت (ريم) لأبيها ، وقد ازداد نحيبها :

ـ كلا يا أبى .. لاتدعها ترحل .. إننى أحب ماما (نادية) .

صاحت فيها عمتها بقسوة :

ـ ماما (نادية) .. كيف تدعينها بهذه الصفة يا بنت .

تجاهل (عماد) تعليق العمة ، قائلا لابنته :

ـ هذه أول مرة أراك تنادينها بهذه الصفة .. أتودين أن تصبح (نادية) بمثابة أم لك ؟

قالت الطفلة من خلال عبراتها :

ـ ليت هذا يحدث يا أبى .. إنها تعاملنى كابنتها تمامًا ، ولقد طلبت منها أن تتزوجك ، ولكنها لم تجب بشىء .

قالت العمة بحدة ، وقد بدا عليها الانزعاج :

ـ كفى عن هذا الحديث يا بنت .. كيف سمحتى لنفسك بترديد قول كهذا ؟!

(عماد) :

ـ أنها لم تقل إلا ماكنت أفكر فيه ، وكنت فقط بحاجة إلى موافقة (ريم) على أمر كهذا .. حسن إنك تقولين أن وجود هذه الفتاة فى منزلى ، ومرافقتها لى يثيران الأقاويل



والاتهامات .. وأنا سأضع حدًا لهذه الأقاويل والاتهامات .. سأتزوجها .

بُهت الجميع ، وهم ينظرون إليه غير مصدقين ، فى حين تقلصت ملامح العمة ، وهو يردف فى حزم :

ـ ويجب أن تعرفوا أننى لن أتزوجها بسبب الأقاويل والشائعات ، التى تحدثت عنها عمتى ، والتى تقول إن أهل البلدة يرددونها ، فالله يعلم أن هذه الفتاة أبعد ماتكون عن أية كلمة مسمومة ، تمسّ سمعتها ، وأنها أفضل فتاة رأيتها فى حياتى .. ولكننى سأتزوجها .. لأننى أحببتها .. أحببتها بصدق ، وأعترف أنها الإنسانة الوحيدة ، التى أحببتها فى حياتى ، كما أننى مطمئن تمامًا إلى أنها تحب ابنتى ، كما لو كانت ابنة لها ، وسترعى والدى كما لو كان أباها ، ولست بحاجة إلى شىء أكثر من هذا .

قالت العمة بانفعال :

ـ ماذا تقول؟ تتزوّجها؟! هل جننت؟.. هل استطاعت هذه الفتاة أن تخدعك إلى هذا الحد؟.. كنت أظن أن الأمر مجرّد عبث ولهو ، ولكننى لم أظن أن الجنون سيصل بك إلى هذا الحد .

وفى تلك اللحظة سمعوا عدة طرقات على باب الحجرة ، ثم اندفعت (فوزية) إلى الحجرة قائلة :

ـ عفوًا .. ولكننى ذهبت لتنظيف حجرة الممرضة فلم أجدها ، ويبدو أنها أخذت حقائبها ورحلت ، تاركة هذه الرسالة .

وحان دور (عماد) ليرتجف .

* * *





## ١٠ ـ وداعًا للصمت..

قرأ (عماد) الرسالة ، التى كانت معنونة باسمه ، ليجد فيها مايلى :

ـ «أشكرك لدفاعك عنى ، وللأيام الطيبة التى قضيتها هنا ، كما يؤسفنى ما سبَبته لك من متاعب ، بسبب وجودى فى منزلك . لقد وجدت أنه من الأفضل لك ولى وللجميع ، أن أرحل عن هذا المكان ، ولكن قبل أن أرحل أستطيع أن أكتب لك الآن الكلمة التى لم أستطع أن أقولها لك طوال فترة وجودى .. أقولها بعد أن أخفيتها عنك كثيرًا ، ولم أعد أقوى على إخفائها بعد الآن .. تلك الكلمة التى لم أستطع قولها فى مواجهتك ، والتى أكتبها الآن وأنا مطمئنة ؛ لأننا لن نلتقى بعد اليوم ، ولن تلقى كتابتها عليك أو علىّ بأى عبء أو مسئولية ، فحتى المستشفى لن أعود إليه ، ولن تعثر لى على عنوان ، يمكنك الاهتداء إليه ، لذا فأنا اكتبها لك فقط ، لكى تعرف حقيقة مشاعرى نحوك ، والتى تمنيت فى كثير من الأوقات أن أعبر لك عنها .. لقد أحببتك .. نعم .. وآسفة لأن أقول لك هذا ، فأنا أعترف بفشلى فى أن أكون صديقة كما طلبت منى .. لم يكن الأمر

بيدى .. إنه أقوى منى ، فمنذ رأيتك ، عندما جئت إلى هذا المكان لأول مرة ، وأنا أعرف أن هذا قدرى .. أن أحبك .. أحبك فى صمت .. بيننا الكثير من المسافات والحواجز بعضها متعلق بك ، كما عبّرت لى بوضوح ، عندما طلبت منى ألا أطمع فى أن أكون أكثر من مجرّد صديقة ، وبعضها متعلق بعائلتك العريقة ، التى عبرت عنها عمتك بوضوح أكثر ، من خلال نظراتها لى ، ورأيها الذى لايتزعزع فى شخصى كفتاة وضيعة .. لذا كان من الضرورى أن يبقى حبك فى قلبى صامتًا ، وكان من الضرورى أن أرحل ، حتى لا أسبب لك المزيد من المشاكل ، وألحق بسمعتك وسمعة أسرتك أى ضرر ، وتأكد أن هذا الحب الصامت لن يعرفه أحد قط ، حتى أفارق هذه الحياة .. قبلاتى لـ (ريم) ، التى أحببتها من كل قلبى ، والتى سأفتقدها كثيرًا ، كما سأفتقد والدك الطيب الحنون ، الذى سيحتاج إلى المزيد من رعايتك وحبك .. مرة أخرى أشكرك على كل شىء ، وكل لحظة سعادة منحتها لى» . (نادية)

تهالك (عماد) فوق مقعده ، وقد اغرورقت عيناه بالعبرات ، ومالبث أن ألقى رأسه فوق المكتب ، مطلقًا لها العنان ، ونظر الأب إلى ابنه بأسى ، قائلًا للآخرين :



- اتركونى معه بمفردى .

قالت العمة ، دون أن تؤثر فيها الحالة التى بدا عليها (عماد) :

- ابنك يتصرّف كطفل صغير .

وصاح الأب قائلًا بانفعال :

- قلت لكم اتركونى معه بمفردى .. لا أريد أحدًا منكم فى الحجرة .

وقال لابنته :

- خذى الطفلة معك .

حملت (هدى) الطفلة ، التى أخذت تصيح وتبكى ، وهى تردد :

- أريد ماما (نادية) .

غادر الجميع الغرفة ، بعد أن أغلقوا بابها خلفهم ، وتحرك الأب بمقعده المتحرك ، ليقترب من مكتب (عماد) ، وتناول الرسالة التى فضها ، وأخذ يقرؤها بتمعن ، وتحرك بمقعده مرة أخرى ، ليزداد اقترابًا من ابنه ، قائلًا :

- لا أخفى عليك .. لقد فاجأتنى برغبتك فى الزواج من هذه الفتاة .. ولا أخفى عليك أيضا أننى كنت أنانيًا ، فلم أفكر فيها ، وفيما يمكن أن يلحق بسمعتها ومشاعرها ،

من تأثير التقارب بينكما ، ولكنى فكرت فيك أنت فقط ، فأنا أدرى الناس بتلك الحياة الشاقة القاسية ، التى عشتها لتحمل المسئولية عن كاهل الجميع ، وأعرف أيضًا أنك حرمت من الكثير من حقــوقك كرجل ، من أجل هذه المسئولية .. وحتى عندما حاولت أن تنال نصيــبك المتواضع من الحياة ، بموافقتك على هذه الزيجة ، التى فرضتها عليك عمتك من قبل ، لم يقدَّر لك أن تهنأ بهذا النصيب كثيرًا ، فقد ماتت الزوجة وأنت فى ريعان شبابك ، بعد أن أضافت إليك مسئولية أخرى ، هى تلك الطفلة ، التى تحمل عبء تربيتها بمفردك ، كما تحملت عبء مرضى وشيخوختى .. لذا فقد حاولت أن أقرِّب بينك وبيــن هذه الفتاة الجميلة ، لتخفِّف عنك شيئًا من قسوة الحياة التى تعيشها .. كنت أهدف من وراء ذلك أن تمتع نفسك بشىء من اللهو والمرح .. فى صحبتها ، خاصة وقد لاحظت إعجابك بها ، ولم يتطرق تفكيرى لأكثر من ذلك .. أعنى أننى لم أفكر فيها مطلقا كزوجة لك .. ولا أدرى لماذا ؟.. ربما لأننى لم أتصوَّر ذلك .. وربما لأننى لم أكن أراها مناسبة لك ، بأى حال من الأحوال ، وفقًا لتقاليد عائلتنا .. ويبدو أننى كنت أحمل بداخلى بعضًا من تلك الأشياء التى أكرهها فى عمتك ، فأنا أخوها على كل حال ،



ولدينا بعض الصفات الوراثية البغيضة ، ولكنى الآن أدرك حقيقة خطئى ، وأشعر بالذنب ، لأننى فكرت فى الفتاة على هذه الصورة السيئة ، دون أن أعبأ بمشاعرها ؛ ومشاعرك أنت أيضًا ، وأنا أعتذر عن ذلك .

قال (عماد) من خلال دموعه :

ـ لاتعتذر يا أبى ، فأنا أيضا أحمل بعض تلك الصفات الوراثية البغيضة ، لأننى فكرت فيها أيضا فى البداية بتلك الطريقة الأنانية .. أردت أن أجد وسيلة لأقربها منى ، لاتُحملنى أى التزام نحوها ، فاستخدمت كلمة الصداقة ؛ لأخفى بها حقيقة مشاعرى ، وحقيقة رغبتى فى الاحتفاظ بها بالقرب منى ، دون أن أعبأ أنا الآخر بمشاعرها ، على الرغم من أننى كنت أدرك من نظرات عينيها مدى حبها لى ، فقد كنت أضعف من مواجهة التقاليد العائلية ، والأوضاع الاجتماعية ، والمجاهرة بحبى لها .

الأب :

ـ ولكنك تغلَّبت على ضعفك ، وانتصر حبك لها فى النهاية على ما عداه من الاعتبارات ، فمنذ لحظات قلت : إنك ستتزوجها .

(عماد) :

ـ جاء ذلك بعد فوات الأوان .. لقد رحلت ، دون أن تترك أى أثر يدل عليها .

الأب :

- الأوان لم يفت بعد .. لو أنك تحبها حقًا ومصر على الزواج منها ، فيجب ألا تضيع الوقت .. عليك أن تلحق بها .. وتبحث عنها ، وإذا اقتضى الأمر تقلب عليها الدنيا شبرًا شبرًا . وبدا الأمل فى عينى (عماد) ، وهو يقول :

- هل أفهم من هذا ..

قاطعه الأب :

- نعم .. إننى أوافق على هذا الزواج وأباركه ، ولاتعبأ بعمتك وبآرائها الرجعية المتشددة .. إننى أحب أن تكون هذه الفتاة زوجة لابنى ، وابنتك ترغب فى أن تراها زوجة لأبيها ، فماذا تريد أكثر من هذا؟.. لابد وأنها فى طريقها الآن إلى المحطة لتستقل القطار عائدة إلى (القاهرة) ، والقطار المتجه إلى (القاهرة) أمامه ساعة إلا الربع للقيام ، فإذا لم تلحق بها فى الطريق ، فيمكنك اللحاق بها فى المحطة ، إذا ما استخدمت سيارتك ، قبل هذا الموعد بربع الساعة ، وأعتقد أنك لن تجد مشكلة فى العودة بها الى هنا .

ولأول مرة ارتسمت ابتسامة الأمل على وجه (عماد) ، وهو يتطلع إلى أبيه ، قائلًا :

- أشكرك .. أشكرك يا أبى .



قال له الأب :

- هيا .. هيا .. لا تضيع الوقت .. قل لها لاتتأخر عن موعد تقديم الدواء المحدود لى ، فلن أتناوله إلا من يدها .

اندفع (عماد) خارجًا من المنزل ، دون أن يجيب تساؤلات أحد ، ونادى على الخفير قائلًا :

- أحضر لى السيارة فورًا .

قال (عبد العظيم) معتذرًا :

- إحدى عجلاتها معطبة . سوف أستبدلها بالعجلة الاحتياطية ، وأحضرها فورًا .

قال (عماد) بضيق :

- هل سأنتظر حتى تستبدل العجلة بأخرى؟ لماذا لم تفعل ذلك من قبل؟ أرأيت (نادية)؟

قال (عبد العظيم) فى وجل :

- نعم .. لقد استوقفت إحدى السيارات المارة على الطريق ، والتى يبدو أنها تتجه إلى البلدة .

اندفع (عماد) يركض ، ليثب فوق عربة الجياد ، وهو يشدّ لجامها منطلقًا بأقصى سرعة مرددًا :

- أرجو أن ألحق بها .. إنها فرصتى الوحيدة .

وصل إلى المحطة قبل تحرك القطار بثوان معدودة ، بعد أن بذل جهدًا خرافيًا ، حتى يتمكن من اللحاق به ، قبل

قيامه من المحطة ، معتمدًا على جهد الجوادين ، وراح ينادى وهو يركض على رصيف المحطة :

- (نادية) .. (نادية) .

كاد اليأس يبلغ به مداه ، عندما لم يتلق جوابًا على ندائه ، وبعض الوجوه تتطلع إليه فى دهشة وتساؤل ، من وراء نوافذ القطار . الذى بدأت عجلاته تتحرك ، وفكّر فى أن يقفز داخل القطار ، ويؤجل البحث عنها إلى محطة الوصول فى (القاهرة) ولكنه تردد ، خوفًا من ألا تكون فى هذا القطار ، وأن تكون مازالت فى البلدة ، فى انتظار السفر فى قطار الصباح ، ودعا الله أن يعلم أين هى ..

وكأنما استجاب الله لدعائه ، وجاء القدر رحيمًا به ، فقد وجدها تطل من إحدى النوافذ المغلقة ، وهى تتطلع إليه فى دهشة ، فأشار إليها أن تغادر مقعدها ، وتذهب إلى باب القطار القريب ، فأطاعته دون تفكير ، وفتحت باب القطار ، الذى أخذ يتحرك مغادرًا المحطة ، وهى تسأله وهو يركض للحاق بها :

- (عماد) .. ما الذى جاء بك؟

قبل أن تكمل سؤالها ، كان قد أحاط خصرها بإحدى ذراعيه ، واجتذبها من خلال الباب المفتوح إلى رصيف المحطة ، قبل أن يزيد القطار من سرعته ، وابتسم لها ،



وهى تنظر إليه وإلى مافعله فى ذهول ، ليجيب عن سؤالها المبتور ، قائلا وهو يلهث فى شدة :

- لأننى أحبك .. أحبك بجنون ، ولم ولن أحب سواك .

قالت وهى تلهث بدورها ، وفى عينيها نظرة عدم تصديق :

- غير صحيح .. لاداعى لأن تلزم نفسك بشىء غير حقيقى ، فأنت واقع تحت تأثير الرسالة التى كتبتها لك ، ولم أكن أرغب أبدًا فى أن نلتقى بعد كتابتها .

(عماد) :

- ولكن حبى لك حقيقى .

(نادية) :

- كلا يا (عماد) .. إنه إحساس بالعطف والشفقة ، تجاه إنسانة أحبتك ، ولولا الرسالة .. من فضلك دعنى أرحل .. سأستقل سيارة أجرة .

قاطعها قائلًا :

- لماذا لاتصدقيننى؟.. لو كنت انتظرت قليلًا ، قبل أن تسرعى بمغادرة المنزل ، وترك هذه الرسالة ، لعرفت أننى اعترفت لهم بهذا الحب وبرغبتى فى الزواج منك .

قالت وهى تتراجع الى الوراء عدة خطوات ، غير مصدقة :

- تتزوجنى ؟!.. ولكنك طلبت منى أن أكون صديقة لك فقط .

(عماد) :

- لابد من الاعتراف بأننى استخدمت هذا التعبير ، لأننى كنت مشوش العاطفة وقتها .. كنت أريد أن أجد وسيلة تقربك منى . دون التزام بعواقب ذلك الحب ، الذى لم يمر بقلبى من قبل .. (الصداقة) لم تكن هى الكلمة الحقيقية .. بل الحقيقة أننى أحببتك ، وكان حبى لك أنا الآخر صامتًا ، لايجد الشجاعة للتعبير عن نفسه .

(نادية) :

- ولكن مسئولياتك تجاه عائلتك .. ابنتك ووالدك ، وعمتك ، وإخوتك ، إننى فتاة لا تناسبك بأى حال من الأحوال .

قال (عماد) ، وهو يحيط كتفها بذراعه :

- لاتقولى هذا عن نفسك ، فأنت تشرفين أى شخص تنتسبين إليه ، وأعتقد أننى أنا الذى لا أستحق فتاة رائعة مثلك ، أما عن أبى ، فهو الذى دفعنى إلى اللحاق بك هنا ، وهو يشدد عليك ألا تتأخرى عن تقديم دوائه فى موعده المحدود هذه الليلة ، وأما (ريم) ، فأنت تعرفين مدى حبها لك .. إنها تبكى فى انتظار عودتك ، وإخوتى سيرحبون



بلاشك بزواجى منك ، لأنهم يقدرونك .. بقيت العمة ، وأعتقد أنها سترضخ فى النهاية ، إزاء معارضة الجميع لتلك التقاليد البالية ، التى تتمسك بها ، فعلى الرغم من كل شىء ، أعتقد أنها تريد لى السعادة ، وتحبنى كابنها ، فما هى المشكلة أمامنا إذن ؟ .

ظلت (نادية) مترددة وهى تقول :

- إننى أرى أن كل هذا أمر غير معقول .. كيف يمكننى أن أصدق أن كل أحلامى يمكن أن تتحقق هكذا فجأة ؟.. هذا فوق مقدرتى . إننى .. إننى ...

قاطعها قائلًا :

- إنك تحبيننى .. أليس كذلك ؟

ظلت صامتة ، وهى تنظر إليه دون أن تجيبه ، فعاد يسألها :

- لماذا لاتنطقينها ؟.. أما آن الأوان لهذا الحب الصامت أن يتكلم ؟!

قالت بعد برهة من الصمت ، وقد اغرورقت عيناها بالعبرات كما لو كانت تحاول أن تستجمع شجاعتها وقدرتها على مواجهته بهذه الكلمة :

- نعم .. إننى أحبك .. أحبك بكل ذرة فى كيانى .

ابتسم قائلًا :

ـ أخيرا نطق الحب على لسانك ، كما نطق على لسانى .

واستطرد فى ارتياح :

ـ حسن .. إذا كنت تحبيننى وأحبك ، فهل تتعطفين على هذا الحبيب المسكين ، وتسعدينه بموافقتك على الزواج منه ؟

قالت وهى غير قادرة على التحكم فى عبراتها ، التى سالت على وجنتيها ، من شدة الإحساس بالسعادة :

ـ نعم .. هذا هو ما تمنيته ، منذ التقيت بك .. أن أكون زوجتك .

تناول عماد يدها ، التى ما تزال ترتجف من شدة التأثر ، ليحتويها بين يديه قائلًا :

ـ أشكرك يا حبيبتى ، لأنك منحتينى كل هذه السعادة .. علينا إذن أن نسرع بالعودة إلى المنزل ، لنبدأ الاستعداد لحفل الزواج ، فأنا أريد أن يحضره كل شخص فى البلدة ، ليشاركنى سعادتى .

وجلست (نادية) إلى جواره ، فى المقعد الأمامى من العربة ، حيث شد لجام الجياد ، منطلقًا بها فى طريق عودته إلى المنزل ، وأحاطت هى ذراعه بساعديها ، وهى



تلقى رأسها على كتفه ، وقد استولت عليها سعادتها ، وبدا لها وكأن هذه العربة لاتسير على الأرض ، بل تحلق فى السماء ..

سماء الحب ..

الحب الذى تكلم أخيرًا ، بعد أن أضناه الصمت .

★★★

( تمت بحمد الله )

زهور
سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

المؤلف



أ . شريف شوق




## أحببتك فى صمت

أحب كلا منهما الأخر حبًا جارفًا ، ولكن الحواجز والسدود بينهما وقفت حائلا دون التعبير عن هذا الحب ، الذى بقى صامتا فى قلبيهما ، إلى أن جاءت اللحظة التى خرج فيها الحب عن صمته ، وأخذ يصرخ معلنا عن نفسه .

قرش جنيه
٢ . .
الثمن فى ...
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم